الحسين بن علي

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

مطبوعات المكتبة الاهلية

عني بطبعه ونشره

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية

PT6 Madany 14/5/45
C
210

الحسين بن علي

حفيد محمد بن عبد الله

«صلى الله عليه وسلم»

انشأه معتمداً على المصادر العربية، وبحوث المستشرقين

عمر ابو النصر

المكتبة الأهلية
في بيروت
للطبع والترجمة والتأليف والنشر

المطبعة الوطنية

893.7H955
DA

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت الى ايام خلت احاور نفسى في ما يسعني من الوقت طال او قصر، لارسال كلمة تتقدم فصول هذا الكتاب، اتناول فيها مواضيعه وبحوثه وفصوله وطريقة تأليفه ووضعه، بشيء من التفصيل والايضاح، ثم بدا لي ان لا افعل من هذا شيئاً، وان اترك كتابي يسير سبيله بين الناس، مكلوم الفؤاد، دامي الاطراف دامع العين، ممزق العاطفة

ولو انني اردت من ذلك شيئاً لكان حتماً علي ان اتناول بالبحث والنقد من سبقني من المؤلفين، وانتظم قبل كتابي من الكتب والمؤلفات، وليس هؤلاء بالعدد القليل، وقد ذهب كل واحد منهم فيما اودع كتابه مذهباً من الفهم والبحث والتحقيق والاعراب عما يريد، يلائم الوقت الذي انشأ فيه، ويماثل الموضوع الذي اختاره، ويتقارب مع ذهنيته وعقيدته ونظره الى هذه

45.39141 February 23 IM/MLF

الاحداث التاريخية الغابرة ، نظرة قد تكون قريبة من الحقيقة او بعيدة عنها ؛ او هي الحقيقة كلها ، ولو اردنا ان نعرض لهذا كله ونتلطف في بحثه ونقده وتحقيقه لتولينا قارىء كتابنا بالعناء الكثير ، والنصب الوفير ، ولخرج كتابنا يضطرب في غير موضوعه ؛ ويعرض لغير ما انشأ له .

و كتابنا هذا يعرض لتاريخ الامام الحسين عرضاً جديداً ، فيتناول الاسباب التي حدت بالامام الى المطالبة بالخلافة والتشمير نحو الكوفة ، ثم يتبسط في ذلك تبسطاً اقره المنطق ، وروج له وفرة الاخبار ، وايده العقل ، و كل ذلك في تبويب وتقسيم وتعليق دقيق على الاحداث والوقائع ، مما نحسب انه من الطرافه بالمكان الارفع ، خصوصاً ما عرضنا له من بحوث مستشرقي الفرنجة في هذا الموضوع ، وبذلك خرج كتابنا والحالة هذه ينتظم في جدة نظن انها تصادف التأييد المرغوب عند جمهرة القراء ، ومحبي الامام وعشيرته ، وآل بيته ، صلوات الله عليهم اجمعين .

***

وليس يستطيع المؤرخ ان يعرض للرزء العظيم ومقتل الامام الشهيد دون ما تبسط في الاحداث التي سبقت ، والاسباب

التي تقدمت ، خصوصاً وان ثورة الامام الشهيد على النظام القائم وحكم يزيد بن معاوية لم تكن من الامور التي وقعت ارتجالاً ، وحدثت دون ما اسباب سابقة لعبت دورها في الترويج لها وتكوينها حتى كانت الفاجعة وحصلت الواقعة ، ولذلك رأينا ان نعرض بشيء كثير من القصد الى الاسباب التي مكنت لمعاوية في الملك ، وما دعاه الى تفضيل يزيد ومبايعته بالولاية من بعده ، وان نصدر ذلك بصورة موجزة لامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، يتفهم معها قاريء كتابنا هذا ، عوامل الخصومة التي انتضحت بين الحزبين ، واستطارت بين السياستين ، وكان حقا عليها ان تمتد الى ابناء الرجلين ، وان تشتد الخصومة بين الابناء بمثل ما اشتدت به بين الاباء ، وما كان لذلك كله من اسباب ونتائج ومصاير في التاريخ والاسلام .

***

وقد توفرت كل التوفر على ان لا يضطرب كتابي هذا الا بما ايده الثقات من المؤرخين ، والمشاهير من المؤلفين ، خصوصا وقد كانت ثورة الامام على يزيد ، ثورة الامة على حاكم لا يصلح للحكم ، وامام لم يتوفر فيه ما يجب ان يتوفر في المليك الحاكم والامام القائم من عدل واخلاق ، وعلم وايمان

وفي هذا ما يدل على ان الاسلام لا يؤيد الحاكم الطاغية

ولا الامير العاتي ، بل انه ليذهب الى اكثر من هذا ، فيأمر المسلمين بانكاره وحربه ، فمقام الحكم لا يجب ان يتصل بغير الافاضل من القوم ، الخلص من البشر ، الذين يقسطون بين الناس ؛ ويقيمون العدل ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

شعبان ١٣٥٣
كانون الاول ١٩٣٤

مصادر الكتاب

لقد اعتمدنا في وضع هذا الكتاب وانشائه على مصادر كثيرة نجتزيء بذكر اشهرها واهمها :

مصادر عربية

تاريخ ابن الاثير
〃 الطبري
〃 الفخري
اسد الغابة
عصر المأمون
تاريخ الخلفاء الراشدين للنجار
اليعقوبي
مقاتل الطالبيين
البلاذري
العقد الفريد
تاريخ ابن عساكر

مصادر افرنجية

يزيد الاول تأليف لامنس
معاوية 〃 〃 〃
تاريخ الخلفاء السر موير
دائرة المعارف الاسلامية
〃 〃 الانكليزية
البرنس كيتاني الايطالي

– ١ –

آل البيت وحقهم في الخلافة

لعل مقتل الامام الشهيد ابي عبد الله الحسين رضي الله عنه من اكبر الاسباب التي عملت على تبسط فكره التشيع بين جماعات المسلمين ، فغذتها وقوتها حتى اصبحت ولها من الشأن في مصاير الاسلام ما هو معروف ومشهور .

وقد ذهب المستشرقون يؤيدون هذه الظاهرة ، واغرق بعضهم فذهب يقول: «لولا مقتل الحسين عليه السلام لما كان هناك شيعة في الاسلام» وهو قول ليس بالامكان اقراره خصوصاً وان فكرة التشيع لامير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه الصلاة والسلام ظهرت عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومابرحت قوية بارزة ، حتى مقتل الامام الشهيد ابي عبد الله الحسين ؛ وان كنا لا ننكر ان مقتل الحسين كان من العوامل الخطيرة في تغذية النظرية وتقويتها وتبسطها وانتشارها .

ولقد شغلت مسألة الخلافة رجالات الاسلام اول عهدهم بالحكم والسلطان فاختلفوا فيها وتقطعت آراؤهم ، وذهبوا في تفسيرها مذاهب لا يتفق واحدهم مع رفيقه فيما يختص بشأنها ويتعلق بها .

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعين خلفه، واحس المسلمون بعد وفاة الرسول بضرورة اختيار خلف له ، يتولاهم بالنصيحة ، ويرعاهم بالعناية ؛ وينظر في شؤون حربهم وصلاتهم وزكاتهم ويفصل فيما يقع بينهم من خصومات ، وما يستطير من منازعات ، واذا كانوا قد اتفقوا على ضرورة اختيار الخلف ، فقد اختلفوا في الخليفة ، فذهب الانصار يريدونه منهم ، وحجتهم في ذلك انهم هم الذين نصروا رسول الله ونصروا دينه ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وقد توفي رسول الله وهو عنهم راض ، وبهم قرير عين

وكانت حجة المهاجرين انهم اول من آمن به ، وصبروا معه على الاذى ، ولم يستوحشوا لقلة عددهم وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش ، والعرب لا تدين الا لهم ، ولا تقر بعزة ومنعة غير عزتهم ومنعتهم ، فهم اولى بالخلافة من غيرهم ، فلما عرض الانصار ان يكون منهم امير ومن المهاجرين امير ، رفض المهاجرون ذلك واشتد الحوار بين الفريقين في سقيفة بني ساعدة ، حتى تمت البيعة لابي بكر الصديق المهاجر التيمي القريشي .

***

فلما تمت بيعة الصديق انكر الامام علي بن ابي طالب ذلك ، وقال ان الخلافة يجب ان تكون في بيت رسول الله ، وان اقرب

الناس الى النبي اولى ان يخلفوه ، وان بيت بني هاشم خير من بيت ابي بكر ، وان العرب للاولين اطوع ، وقد احتج المهاجرون على الانصار في السقيفة بانهم قوم النبي وعشيرته ، فآل النبي والحالة هذه أولى من غيرهم واحق من سواهم

***

وشغل المسلمون بالفتح والانتصارات ايام ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتناسوا امر الخلافة وحق آل البيت بها ، ولم يعرضوا لها ، حتى كانت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو اموي ، وقد راح يستعين بالامويين دون غيرهم ، بوليهم المناصب ويغدق عليهم العطايا والهبات ، فانكر المسلمون عليه ذلك ، واغرق خصومه في انكارهم فحاصروه وقتلوه ، وبايع الناس بالخلافة بعد قتله ، الامام علي رضي الله عنه ، فتقوت عندئذ فكرة التشيع لآل البيت ، وذهب انصار الامام يقولون : ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة ، ويتعين القائم بها تعييناً باختيار جماعة المسلمين وانتخابهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفالها ، ولا تفويضها الى الامة ، بل يجب تعيين الامام لهم ، ويكون الامام معصوماً من الكبائر والصغائر ، وان علياً رضي الله عنه هو الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوردون لذلك نصوصاً كثيرة ، ومن هنا نشأت فكرة الوصية

ولقب الامام علي بالوصي، يروجون بذلك الى ان رسول الله اوصى لعلي بالخلافة من بعده وانه والحالة هذه وصي رسول الله.

وهذه النظرية هي التي حملت المسلمين بعد مقتل الامام علي على البيعة بالخلافة لابنه الحسن رضي الله عنه، وهي التي حملت الحسين رضي الله عنه على معاتبة شقيقه الاكبر الحسن لما راح هذا يتنازل عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان، وهي التي دعت الحسين بعد ذلك ان يرفض مبايعة يزيد، وحملت مسلمي العراق وغيرهم على دعوته اليهم، يبايعونه ويؤيدونه وينصرونه

***

ولقد كانت الجماعات الاسلامية بعد موت معاوية تضطرب في عدة احزاب قوية، نستطيع ان نسميها ونحصيها: فحزب قد التف حول بني امية في الشام يناصرهم، ويريد ان يثبت لهم الملك، وثان قد التف حول البيت النبوي من بني هاشم وعلى رأسهم الحسين ابن علي يدعو الى ان تكون الخلافة لهم، وثالث ينكر هذه الاحزاب كلها ويرميها بالكفر ويصفها بالمروق من الدين؛ ويثيرها عليها حرباً شعواء، وهو حزب الخوارج الذين ينكرون ان تكون الخلافة في قبيلة او شعب دون شعب، ويريدون ان يكون الامر كله شورى بين المسلمين، وكان الجهاد بين هذه الجماعات متصلاً عنيفاً منكر الاثر، ولا سيما بعد ان مات معاوية وهلك

يزيد، وظهر عبد الله بن الزبير ، فقد طغت الثورة الاهلية على المسلمين فامتشقوا اسيافهم يصوبونها الى صدور بعضهم بعضاً .

وظل الحال على هذا فترة من الزمن ، وفق فيها الامويون آخر الامر ، الى القضاء على حزب عبد الله بن الزبير فمحوه محواً ، وانتصروا على شيعة آل البيت النبوي ، فاضطروها الى معارضة تظهر متى اشتدت ، وتخفى متى اشتد البأس ، ولكنها قائمة على كل حال ، لها انصارها وشعراؤها ، وخطباؤها ؛ ولم يثبت لبني امية الا حزب الخوارج يجاهدهم جهاداً عنيفاً ، حتى اذا انتصروا عليه ، لم يضعف امره الا ريثما يقوى مرة اخرى

***

وما كان الحسين رضي الله عنه من اولئك الذين يطلبون الخلافة لما يضطرب فيها من جاه ومجاد ، وانما كان رجلاً نزل عند رغبة عامة المسلمين لما عرضوا عليه الخلافة وبايعوه ، وقد تقبل ذلك منهم لما ادرك ان يزيداً بن معاوية غير صالح لها ؛ وليس من اهلها واربابها ، فمشى عندئذ الى العراق ، بعد ان اغرق اهل العراق في الكتابة اليه بالمسير اليهم ، والقدوم الى امصارهم ، وبعد ان بايعه من اهل الكوفة عدة آلاف من رجالاتهم واشرافهم وكبارهم ، وبعد ان وعدوه النصرة والتأييد والمعونة ، ومحاربة العدو ، والوقوف معه في صعيد واحد ، وما سار اليهم رضي الله عنه الا

بعد ان استوثق من مبايعتهم له ، وبعد ان ارسل رسولاً من قبله يبحث له الامر ، ويدرس له بواطن الامور ؛ فكتب له رسوله بالقدوم موءيداً بذلك ما سبق ان وصل له رضي الله عنه من ، كتب البيعة ورسائل التأييد والتعضيد

وقد مشى الحسين الى الكوفة يحمل معه اهله وهو لا يريد حرباً ولا خصومة ، ولو كان يظن انه ملاق حرباً ، لما سار باهله وعياله ، ولو كان يريد فرقة او اختلافاً لظل مكانه في مكة وراح يحرض الناس على الفتنة ، ويدفعهم الى الثورة ، وهو ما ذهب يقول به بعض المستشرقين

فمسيره والحالة هذه بنفسه وعياله ، وبعض من يثق بهم من رجاله بوءيد ما نذهب اليه من انه كان يقصد الكوفة وهو موءمن الايمان كله ان اهلها معه ، وانهم قد بايعوه ، واقسموا ان يعضدوه ويوءيدوه ، فلما كان في بعض الطريق وعرف ما طرأ على القوم من تبدل واخبر بانهم سيخذلونه ، عرض على خصومه ان يعود الى مكة ، وهو يقول :

« اما وقد تركتم معونتنا ونقضتم بيعتكم ، فاني مغادركم لانه لا يصح لمثلي ان يحملكم على بيعته حملا ، ويدعوكم الى تأييده بالقوة »

وفي هذا ما يدل على رغبة الامام رضي الله عنه بالمسالمة

والبعد عن الفتنة ، ولو كان خصومه مثله سلاما وبعداً عن الثورة وتمزيق الكلمة لا يدوه في خطته ، وتركوه وشأنه ، ولكنهم ارادوها ثورة ، تمزق الامة ، وتطغو على حياتها ، وتعصف بما كانت تستمتع به من وحدة وقوة ومجاد .

— ٢ —

الامام علي بن ابي طالب

— رضي الله عنه —

ذهب بعض المؤرخين بخطأ التقدير ؛ وخطل الاسفاف ؛ فاوسعوا للخلافة بعد الخلفاء الراشدين في صدور الكتب مجالاً ؛ وذهبوا يروجون الى اتصالها ببني امية ، وغير بني امية ، والخلافة في الواقع يجب ان تكون شورى بين الناس لا يتولاها الا من توفرت فيه شروط يطمئن لها المسلمون ، فيرتضونه اميراً لهم حاكماً عليهم ، يسوسهم بالعدل ، ويتولاهم بالاحسان ، ويحكم بينهم بالقسط والحق ، لا ضعيف عنده فيهم ، ولا قوي لديه بينهم ، ثم لا تمتد يده الى بيت المال الا في ما يتصل بمصالح الرعية ، ولا يعهد بعمل من اعماله لاحد من الناس الا ان يكون صادقاً مخلصاً نزيهاً عادلاً ؛ وهذه امور ما توفرت لحكام بني امية الذين كانوا ملوكاً توارثوا الملك ولداً عن والد ، وشقيقاً عن شقيق ، وراحوا يتوفرون على سياسة لا تتصل بسياسة الخلفاء الراشدين ، ولا تتعلق بهم بشيء كثير او قليل ، وكان كبيرهم معاوية ابن ابي سفيان اول

من سن لهم هذه السياسة ، واختط لهم هذا السبيل ، ولقد انقدت الخصومة بينه وبين امير المؤمنين علي بن ابي طالب في ما يتصل بهذه السياسة المثيرة للحفائظ ، والتي تبسطت الوانها في عهد عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، يوم نفرت بعض القبائل العربية الى شيء من الحزبية كان اخمدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده ، ومنع الناس عن التحدث بها والعودة اليها ، ذلك انها كانت استغلالاً لمرافق الحياة ومظاهر الحكم والسلطان لشيعة دون اخرى ، وفي هذا ما ينافي الوحدة القومية ، والاخوة الاسلامية ، التي ايدها القرآن ودعا اليها رسول الله دائماً وابداً .

وليس من العسير على المؤرخ معرفة الاسباب التي دعت الى هذه الخصومة بين امير المؤمنين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، ومن السهل الوقوع على الاسباب التي دفعت بعض القبائل العربية وبعض الجماعات الى تأييد معاوية دون امير المؤمنين ، وهو الامام القائم ، وخليفة المسلمين ، ذلك ان هذه الجماعات التي كانت ترغب في الاستمتاع بالحياة وامجاد الحكم ، وسلطان الامارة بعد توفر الفتوحات الاسلامية ، وتبسطها في المعمور ، وتدفق ثروة الامم المغلوبة الى خزائن العرب ، لم تجد في امير المؤمنين علي بن ابي طالب تأييداً لرغائبها ، وتشجيعاً لمطامعها ، بل لقد وجدت فيه على النقيض من كل هذا ، رجلاً صلب العود ، وحاكماً قوي الشكيمة

يحاول ان يسير في الناس سنة الحق والعدل ، لا يغمط لضعيف حقاً ولا يترك لكبير ان يمشي في الارض مرحاً وان يبلغ الجبال طولا، وكان هذا شأنه مع بنيه وقرابته ، وانصاره وثقاته ، ،وخبر شقيقه عقيل معه مشهور معروف ، فقد حاول ان ينال من بيت مال المسلمين ما ليس من حقه ، فابى الامام عليه ذلك ، ففارقه ولحق بمعاوية فامر له بثلاثمائة الف دينار فقال عقيل عندئذ كلمته المشهورة: « ان اخي خير لي في ديني ، ومعاوية خير لي في دنياي »

والواقع ان رجلاً يسير في الناس هذه السيرة ، ليس بعجيب ان لا يلتف حوله طلاب الاغراض ،واصحاب المطامع ، ومن يريد عرض الدنيا ، ومن البداهة ان ينفروا عنه الى معاوية ، يؤيدونه ويساعدونه ويحاربون معه، وينالون من بره وعطفه ومختلف خيراته ما ليس يصل اليهم شيء منه عند امير المؤمنين وخليفة المسلمين

ولقد كان الامام موئلا دينياً ، وملاذاً للشريعة ومثالا للورع والاستمساك باحكام الكتاب ؛ وكان مصدراً خصباً من مصادر الفقه والتشريع ، وكان في حكومته وحروبه على السواء مؤثراً رضى الله ، مغضباً شهوات الناس ، قارعاً اطماعها ، وكان عنواناً كاملا لاسمى صفات الخلق الاسلامي من حيث النجدة والشجاعة لا الحذق والسياسة؛ وكان مصلحاً دينياً بكل معاني الكلمة، يعمل للآخرة قبل الاولى ويعمل لارضاء الله لا ارضاء الناس ، وكان

كما وصفه عدي بن حاتم لمعاوية « يقول عدلا ويحكم فصلا ، تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهوتها ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يحاسب نفسه اذا خلا ، ويقلب كفيه على ما مضى ، يعجبه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخشن ، وكان فينا كاحدنا ؛ كان يعظم اهل الدين ، ويتحبب الى المساكين ، لا يخاف القوي ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله ، فاقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وارخى الليل سربال وغارت نجومه ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين فكأني الآن اسمعه وهو يقول : « يادنيا أإلي تعرضت ام الي اقبلت ؟ غري غيري لا حان حينك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك »

وكان كذلك مغرقاً في التدقيق في محاسبة عماله حتى اغضب اكثرهم ، وحتى خسر نصرتهم وفي جملتهم مصقلة بن هبيرة الشيباني وابن عمه عبد الله بن عباس ، بعد ان كان من اكبر نصرائه ، واغضب ابن الزبير وطلحة ؛ وكان بطوقه ان يضمها اليه ، لم يكتسب الى جانبه عمرو بن العاص ولم يقبل نصيحة ابن العباس ولا المغيرة بن شعبة في اقرار معاوية وابن عامر ، وعمال عثمان على اعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ، ثم يعزل منهم من يشاء ، فابى وقال:

— لا اداهن في دبني ولا اعطي الدنية في امري

فقيل له : انزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جرأة وهو في اهل الشام يستمع منه، ولك حجة في اثباته بما كان من عمر ابن الخطاب اذ قد ولاه الشام قبلك

فابى وقال : « لا والله لا استعمل معاوية يومين »

ذلك ان الحيل والخدع لم تكن من مذهبه، ولم يكن عنده غير مر الحق ، ولقد قال يوماً لاصحابه بعد ان اثخنوا في اعدائه :

« لا تتبعوا موليًا ، ولا تجهزوا على جريح ولا تنهبوا مالاً »

فجعلوا يمرون بالذهب والفضة في معسكرهم والمتاع ، فلا يعرض له احد ؛ الا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدواب التي حاربوا عليها ، فقال بعض اصحابه :

— ياامير المؤمنين كيف حل لنا قتالهم ، ولم يحل لنا سبيهم واموالهم ؟

فقال علي رضي الله عنه : « ليس على الموحدين سبي ولا يغنم من اموالهم الا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون والزموا ما تؤمرون [1]

***

هذا هو الامام الذي ابت رأفته وابى دينه ان يمنع اهل

---

(١) كتاب عصر المأمون

الشام من الماء كما منعوه اثناء منازلتهم حتى كاد يهلك جنده عطشاً ، والذي منع شيعته وانصاره من شتم معاوية ضارباً صفحاً عن مثل هذا الترويج في الدعوة السياسية لتأييد خلافته والحظ من ملك منافسه ولما بلغه ان حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران شتم معاوية ولعن اهل الشام ارسل اليهما ان كفا عما بلغني عنكما فاتياه فقالا :

ـ ياامير المؤمنين ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟

قال : « كرهت ان تكونوا شتامين لعانين ، ولكن قولوا اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم على ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لهج به »

وكان الى ذلك كله ، شديداً في محاسبة نفسه وعماله ، اما محاسبة نفسه فظاهرة واضحة الوضوح كله ، واما محاسبته عماله فيؤيد ذلك هروب مصقلة بن هبيرة الشيباني منه وانضمامه الى معاوية ومغادرة يزيد بن حجمة التيمي له ، وكان قد استعمله على الري فكسر من خراجها ثلاثين الفاً فكتب اليه يستدعيه فحضر فسأله عن المال قال : « اين ما غللته من المال » قال : « ما اخذت شيئاً » فخفقه بالدرة خفقات وحبسه ، ووكل به سعداً مولاه ، فهرب منه يزيد الى الشام ، فسوغه معاوية المال فكان ينال من علي ، وبقي بالشام الى ان اجتمع الامر لمعاوية فسار معه الى العراق فولاه العراق

وبعد فهذا ما توفرنا على تقديمه وتصويره من حوادث التاريخ واحداث الزمن الغابر نقيم به الحجة على سياسة امير المؤمنين مع عماله واغراقه في محاسبتهم ، واغضابه آل بيته ، في سبيل عقيدته الطاهرة من شوائب الرياء ، واخلاصه لمن ولي امرهم من المسلمين وغير المسلمين ، ومن كان هذا شأنه كان خليقاً ان يلي امور المسلمين ، ويكون امير المؤمنين :

— ٣ —

معاوية بن ابي سفيان

ذهب بنو هاشم بشرف النبوة ، وهو امر ليس بطوق العرب ان تصل الى مثله فكان حقاً على زعماء مكة واشرافها ان ينفروا الى مخاصمتهم ومحاربتهم ، فلما لم يوفقوا الى ذلك ، انصرف ذوو الرأي والحجى فيهم الى القبول بالامر الواقع والاستمتاع بما في الحياة من امجاد وسلطان وهي كثر

وتبسط لمعاوية بن ابي سفيان حكم الشام بعد وفاة اخيه يزيد ابن ابي سفيان ، فذهب ينظم الحكم فيها تنظيماً ظاهر القوة ، بادي الاغراض ، بعيد المصاير ، وراح يوطد لنفسه السلطان ، ويضم اليه الاطراف والمسالح ويثبت وينفي ، حتى اصبحت الشام — وهي احدى ولايات المملكة الاسلامية لا تكاد ترتبط مصايرها بمصاير الامصار العربية الاخرى الا بمقدار ، وحتى صارت وهي لا تتصل بالعاصمة الا على قدر ؛ واذا معاوية في الشام مليك البلد ، وحاكم المصر ، وزعيم القبيل .

واطلقت (امية) بصرها في طول الجزيرة ومشارفها وما بعد هذه المشارف والامصار ، فاذا معاوية قد استغلظ امره ، وفشا شأنه

اذا مافات امية ان تذهب بشرف النبوة ، فلن يفوتها الذهاب بامجاد الدنيا ، وخيرات الارض ، فيطوي رجالها الفيافي الى الشام وينزل بعضهم في امصارها وغورها ، يتصلون بالارض اتصال الرجل المقيم ، ويدلفون الى ما بين هذه العصبيات المتنافرة ، يوطدون من حدتها ، ويهدءون من روعتها ، ويمكنون لانفسهم وسيدهم ملكاً يظنون انه طويل الامد ، بعيد المدى

وينظر معاوية الى من حوله فاذا بنو كلب ، اشد العرب في مصره ، فيتأهل باحدى فتياتهم تلد له يزيداً ، توطيداً لملكه وتمكيناً لسلطانه ، وتلطفاً لما في ثنايا القدر من مفاجآت واحداث ، وقد كان معاوية من اكثر رجالاب العرب دهاء ، وابعدهم نظراً واكثرهم للحوادث استثماراً ، وللمفاجآت حذراً ، وكان على مثل اليقين من انه لن يترك وشأنه في الشام طويلا ، وانهم لا بد محاسبوه على سياسته ، ومنازعوه في سلطانه ، فكان يتأتى لدفع هذه العوادي - وهي ما تزال في حجب الغيب - بفكر نير ، وحلم وسيع وعقل كثير .

فلما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبويع للامام كرم الله وجهه بالخلافة اوجس معاوية شراً ، وادرك ان الامام ليس بالرجل يترك له مصر الشام يسيره وفاقاً لهواه واغراضه ، وعلم انه لن ينال في عهده ما كان يناله عهد عثمان ، والقي في روعه ان

الامام سيدفعه عن مصره ، يولي عليه غيره ممن يثق بهم من اخصائه ورجاله ؛ فذهب يتوسل بالثورة وبالمطالبة بدم عثمان بن عفان حجة يحاول بواسطتها التلويح للامام بما لديه من قوة ، وبما ينعم به من سلطان ، ولعله كان يريد الاتفاق اول الامر ، على ان تترك له الامارة على الشام ، ويعترف بالخلافة للامام ، فلما ابى الامام الا خلعه عن مصره ، واقسم لا يوليه بعد ذلك عملا ، ولا يقود له جيشاً ، ولا يشهد له مشهداً ، ذهب معاوية يتفق وعمرو بن العاص ، على النهوض بالثورة ، واجمعا امرهما على المطالبة بدم عثمان ، واتهام الامام بالاستثقال عن نصرته ، وعلقا قميص عثمان وهو ملطخ بالدم ، واصابع زوجته نائلة على منبر المسجد في الشام ، وجمعا الناس واخذا بالبكاء ، والمناداة بالويل والثبور ، يستميلان بذلك اهل الشام وغيرهم من عامة العرب وبسطاء المسلمين .

وايد معاوية من عنده من الناس ، وبذلوا له الطلب في دم عثمان ، فاطمأن عندئذ الى قوته وراح يماكر امير المؤمنين وغير امير المؤمنين من خصومه ؛ ويخادعهم ويغرق في البذل والعطاء يشتري بالمال قبائل العرب ، وكان مسرفاً في ذلك كل الاسراف ، فقد ذكر (الطبري) حادثة تدل على دهاء معاوية في استخدام المال لشراء ضمائر ذوي المكانة والنفوذ من معاصريه وغيرهم ، ذكر ان ابا منازل قال له لما اعطاه سبعين الفاً ، واعطى جماعة من

الزعماء لا تعلو مكانتهم مكانته مائة الف: فضحتني في تميم يامعاوية اما حسبي بصحيح، او لست ذا سن، اولست مطاعاً في عشيرتي؟

فقال له معاوية: « بلى »

قال: « فما بالك خسست بي دون القوم »؟

فقال: « اني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك الى دينك ورأيك في عثمان بن عفان — وكان عثمانيا —»

فقال: « وانا فاشتر مني ديني » فامر له بتمام جائزة القوم

وكان سياسياً بطبيعته، معطاءً وهوباً بسجيته، وقد صدق في صفته ابو الجهم الشاعر حيث قال:

نميل على جوانبه كأنا اذا ملنا نميل على ابينا

نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينا

وان بطوقنا ان نفهم فهما صحيحاً كانت ثورة معاوية بسبب قتل عثمان ثورة مصدرها عميق اخلاصه في العثمانية ليجري حكم الشرع في قتلة عثمان، ام ثورة مصدرها طموحه الى الملك يغتصبه لنفسه؟ ونستطيع ان نفهم ذلك من حوار جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، فان التاريخ يحدثنا ان معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان: « وا أبتاه » وبكت فقال معاوية: «يابنة اخي ان الناس اعطونا واعطيناهم امانا، واظهرنا لهم حلما تحته غضب، واظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل انسان سيفه، وهو

يرى مكان انصاره ، فان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندري اعلينا تكون ام لنا، ولأن تكوني بنت عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين »

ولسنا نجد تصويراً ادق لسياسة معاوية ، وطريقة حكمه من قوله :

لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت »

قيل : و كيف ذلك ؟

قال : « كنت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها »

فهذا قول يبين حلمه وطول باعه في السياسة وهدوء اعصابه اذا جابهته المشكلات او نزلت بساحته الكوارث والمعضلات، ونظهر سعة عطفه وحزمه وقسطه ، وقد قال يزيد يوم بويع له على عهده فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه : « يا امير المؤمنين والله ما ندري انخدع الناس ام يخدعوننا » فقال معاوية : « كل من اردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته »

ثم انظر الى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها فانك لتقتنع بصدق حكم الشعبي الذي قال فيه : « كان معاوية كالجمل الطيب اذا سكت عنه تقدم واذا رد تأخر »

ولقد امتاز معاوية الى جانب المامه التام بميول كل من نه به

علاقة من البشر، وصادق تقديره مع ثقوب بصيرته بنواحي الضعف فيهم التي يستطيع التقرب اليهم منها، امتاز الى جانب هذا كله بصفات لها مكانتها السامية في تكوين دهاة ساسة الوقت الحاضر، منها براعته في ايقاع اعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة بافانين طريفة طالما عمد اليها الكثير من ساسة اليوم، مثل ذلك طريقته في ايقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للاسلام وذلك بمهادنتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة لاغراء الملك بهم

ومنها حلمه وفي كتب التاريخ مئات الامثال تروج لحلمه وسعة صدره ونضرب لذلك مثلاً، انه لما الحق معاوية زياداً بابيه دخل عليه بنو امية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم اخو مروان بن الحكم الاموي فقال له: «يامعاوية لو لم تجد الا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة» فاقبل على اخيه مروان وقال: «اخرج عنا هذا الخليع» فقال مروان: «والله انه لخليع لا يطاق» فقال معاوية: «والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت انه لا يطاق ألم يبلغني شعره في وفي زياد، ثم قال لمروان اسمعنيه فقال:

الا ابلغ معاوية بن صخر ... لقد ضاقت بما تأتي اليدان

اتغضب ان يقال ابوك عف ... وترضى ان يقال ابوك زان

ومنها لباقته السياسية وهي غير الحلم لانها من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن رضي الله عنه بشأن نزوله عن

الخلافة له ، اذ كتب اليه معاوية كتاباً قيماً جاء فيه:

« اما بعد فانت اولى بهذا الامر واحق به لقرابتك ... ولو علمت انك اضبط له واحوط على حريم هذه الامة واكيد لبايعتك فسل ما شئت »

وبعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة في اسفلها ان اكتب فيها ما شئت فكتب الحسن اموالا وضياعاً وامانة لشيعة علي الخ.

ثم ما وفق اليه معاوية من اختيار اكبر دهاة الولاة كعمرو بن العاص وزياد بن ابيه والمغيرة بن شعبة ممن عملوا معه على توطيد الملك له، والذين ارتسموا الى حد غير قليل خطوات زعيمهم السياسي في شراء الضمائر والمخاتلة والكيد والدعاية والحلم والشدة، وهذا زياد المعروف بشدة الوطأة بلغه عن رجل يكنى ابا الخير من اهل البأس والنجدة انه يرى رأي الخوارج فدعاه فولاه جند نيسابور وما يليها ورزقه اربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مائة الف فكان ابو الخير يقول : « ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين اظهر الجماعة »

وكذلك فعل المغيرة بن شعبة حين حصبه حجر بن عدي وهو على المنبر في خطبة الجمعة ، فانه نزل مسرعاً ودخل قصر الامارة وبعث الى حجر بخمسة آلاف درهم ترضاه بها ، فقيل للمغيرة : «لمَ فعلت هذا وفيه عليك وهن وغضاضة»؟

فقال : قد قتلته بها

الى جانب هذه العناصر المكونة لتلك الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس ملكها ، على ما اعتمدت عليه من ترضي الاحزاب بالمال وعامة الناس بالطعام واستغلال العصبيات العربية والتساهل في اقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعة الاحوال السياسية فان معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على علي بقوله :

« اعنت على علي بن ابي طالب باربع خصال : كان رجلا لا يكتم سراً ، وكنت كتوماً لسري ، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة ، وكنت ابادر الى ذلك ، وكان في اخبث جند واشدهم خلافاً ، وكنت احب الى قريش منه فنلت ما شئت فلله من جامع الي ومفرق عنه »

وبعد — فان السياسة الحديثة قد اباحت لرجالاتها في سبيل تحقيق غاياتهم ان ينتهجوا من الوسائل ما يكفل لهم النجاح السياسي ، ويجب علينا ان نثبت ان جلهم ولو انهم يتظاهرون بنفورهم من مدرسة « مكيافلي » التي تضحي بكل شيء تبريراً للوصول الى الغاية السياسية ، هم في الواقع يأخذون بتعاليمها ويعملون وفاقاً لبرامجها .

والواقع ان معاوية كان فذاً في ما رسمه بنفسه لنفسه من طريق للوصول الى اغراضه السياسية ، فقد راح لا يحفل بالنظم الاجتماعية

والاخلاق والفضائل في سبيل غاياته واغراضه وذهب ينتهج من الوسائل السياسية ما يكفل نجاحه ويوطد امره ، وانه لخليق بنا وبسوانا الا نعدو بعيداً عن هذه الظاهرة حين نؤرخ لمعاوية ونتناول بالبحث عهده وعصره

وانا لنظن انا قد صورنا معاوية بما هو اهله ، واوضحنا ما كانت عليه هذه الشخصية في مسايرة الناس ، واحتمال الاذى ، والاغراق في البذل والعطاء والحلم ما كان هذا مفيداً له في سياسته مساعداً له في حكمه وتعزيز سلطانه

ولقد كان الامام رضى الله عنه يعرف دهاء معاوية وبراعته في استجلاب الناس اليه ، و كتابه الى زياد بن ابيه حينما كان من ولاته يؤيد ما كتبه الامام الى زياد يقول :

« اني وليتك ما وليتك وانا اراك له اهلا ، وقد كانت من بني سفيان فلتة من اماني الباطل ، و كذب النفس لا توجب لك ميراثاً ولا تحل له نسباً ، وان معاوية ، يأتي الانسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام »

***

و كذلك استقام الامر لمعاوية ، وتوطد ملكه ، وبايعه الناس وحكم الامبراطورية الاسلامية دهراً طويلا ، وبايع لابنه يزيد في عهده ، وقد القي في روعه ان الحكم سالم له ، واصل اليه ، وانه

قد وطد له الامر ، و كفاه الشد والترحال ، وذلل له الاعداء ، واخضع له رقاب العرب ، وجمع له ما لم يجمعه احد ، فان يزيداً والحالة هذه ليس بملاق خصومة بعده ، ولا بواجد خلافاً في عهده ، وهو ما اخطأ معاوية في تقديره كل الخطأ ، لان يزيداً لم يكن كابيه دهاء وبراعة ، وحلما وبذلا ، وما كان في الواقع غير فتى لا يعرف من امر المسلمين شيئاً ولا يدرك من الادارة امراً ، ينصرف لانوان من اللهو ، وافانين من العبث ؛ لم يكن من الحق ان يستمتع بها ملك من ملوك المسلمين ، والاسلام ما يزال في اول عهده ، وفجر نشأته ، واذا رضي معاوية وانصار معاوية عن يزيد ؛ فان العرب لم يكن ليرضيها مثله ؛ وهي ما ترغب في الحكم والملك الا لافضلها رأياً ، واعرقها نسبا ، واكثرها تقوى واخلاصا .

***

ومشى المرض الى معاوية ، فبعث الى يزيد يقول له في وصيته السياسية :

« يابني انظر اهل الحجاز فانهم اهلك ، اكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ؛ وانظر اهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فان عزل عامل ، ايسر من ان

يشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان مر بك من عدوك شيء ، فانتصر بهم ، فاذا اصبتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم ، فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم ، واني لست اخاف عليك ان ينازعك هذا الامر الا اربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، فاما ابن عمر فانه رجل قد وقدته العبادة ، فاذا لم يبق احد غيرك بايعك ، واما الحسين بن علي فلن يتركه اهل العراق حتى يخرجوه ، فان خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً ، وقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم واما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان امكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان فعلها بك فظفرت به فقطعه اربا اربا ، واحقن دماء قومك ما استطعت »[1]

وتوفي معاوية لهلال رجب سنة ستين للهجرة وهو في الخامسة والسبعين من العمر ، وكان ملكه تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوما .

«١» ويقال ان يزيداً كان غائباً عند مرض ابيه وموته وان معاوية احضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة فامرهما ان يوءديا عنه هذه الرسالة الى يزيد

— ٤ —

الحسين بن علي

ولد الحسين بن علي رضي الله عنه لخمس خلون من شعبان سنة اربع من الهجرة فاسماه الرسول صلى الله عليه وسلم «حسيناً» واقام مع جده رسول الله ، سبع سنين ، ومع ابيه امير المؤمنين عليه السلام سبعاً وثلاثين سنة ، ومع اخيه الحسن سبعاً واربعين ، وكانت مدة خلافته بعد اخيه احدى عشرة سنة

وكان الحسين في حياة رسول الله طفلاً ، اقام معه ست سنين وسبعة اشهر وسبعة ايام

وكان رسول الله كثير العطف عليه وعلى شقيقه الحسن ، محباً لهما براً بهما ، فقد روى احد الصحابة [1] قال: خرج علينا رسول الله في احدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً او حسينا ؛ فتقدم فوضع الصبي في مكان ثم سجد للصلاة فاطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسي ، فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد ، فرجعت الى سجودي ، فلما انتهت الصلاة قيل يارسول الله: «انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة اطلتها ، حتى ظننا انه قد حدث امر ، اوانه

«١» تيسير الوصول الى جامع الاصول ج ٣ ص ٨٥

يوحى اليك »

قال : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني ، فكرهت ان اعجله »

ومر رسول الله يوماً على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي فقال : « ألا تعلمي ان بكاءه يؤذيني . »

وروى الترمذي في سننه عن اسامة بن زيد قال :

« طرقت باب رسول الله ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا ادري ما هو ، فلما فرغت من حاجتي قلت : « ما هذا الذي انت مشتمل عليه؟ » فكشفه فاذا حسن وحسين على وركيه وقال :

« هذان ابناي وابنا ابتي ، اللهم اني احبهما فاحبهما ، واحب من يحبهما »

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يخطب المسلمين في المسجد ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان احمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله عن المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال :

— صدق الله : « انما اموالكم واولادكم فتنة » نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم اصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما .

***

وقال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب يحب الحسن والحسين ويقدمهما على ولده ، ولقد قسم يوماً فاعطى الحسن والحسين كل واحد منهما عشرة آلاف درهم ، فعاتبه ولده وقال :

« قد علمت سبقي في الاسلام وهجرتي ، وانت تفضل علي هذين الغلامين »

فقال : « ويحك ياعبد الله ، ائتني بجد مثل جدهما ، وأب مثل ابيهما ؛ وأم مثل امهما وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما ، وخالة مثل خالاتهما وعم مثل عمهما ، وعمة مثل عمتهما : جدهما رسول الله ، وابوهما علي ، وامهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وخالهما ابراهيم ابن رسول الله ، وخالاتهما زينب ورقية وام كلثوم بنات رسول الله وعمهما جعفر بن ابي طالب ، وعمتهما ام هاني بنت ابي طالب »

وجعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عطاء الحسن والحسين مثل عطاء ابيهما ، فالحقهما بفريضة اهل بيته ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف

وقدم على عمر حلل من اهل اليمن فكسا الناس ، فراحوا في الحلل وهو بين القبر والمنبر جالس لنفسه ، والناس يأتونه فيسلمون عليه ويدعون ، فخرج الحسن والحسين من بيت امهما فاطمة يتخطيان ، وكان بيت فاطمة رضي الله عنها في جوف المسجد ، ليس عليهما من تلك الحلل شيء ، وعمر قاطب صارّ بين عينيه ،

ثم قال يخاطب المسلمين :

—والله ما هنأني ما كسوتكم.

قالوا: لمَ يا امير المؤمنين ؟

فقال : « من اجل هذين الغلامين يتخطيان الناس ليس عليهما مما كسوت الناس شيء » ثم كتب لصاحب اليمن : « ان ابعث الي بحلتين لحسن وحسين وعجل »

فبعث اليه بحلتين فكساهما ، فلما كساهما قال :

« الآن طابت نفسي»

***

ويذكر ابن خلدون وغيره من المؤرخين وجود الحسن والحسين في الجيش الذي راح يغزو افريقية بعد فتح مصر ؛ وانهما دخلا المغرب الاقصى وجماعة من الصحابة مع الجيش الاسلامي الذي كان يقتحم تلك الامصار في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وروى الطبري في تاريخ الامم والملوك انهما كانا مع الجيش الذي غزا طبرستان ، وفي هذا ما يدل القاريء على ان الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يذودان دائمًا عن الدين والاسلام، وانهما كانا يعرضان صدريهما للرماح في سبيل تعزيز الدين ورفع

رايات الاسلام في كل مصر وقصر.

***

فلما ابتدأت الفتنة في الاسلام عهد عثمان بن عفان ، واخذ الناس ينقمون على الخليفة اموراً كثيرة ، منها ايثاره بني امية في الوظائف والبذل وغير ذلك ؛ ولما راح بعض المسلمين يحصبون عثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد كان الحسين بن علي عليه السلام بين الذين راحوا يدافعون عن الخليفة في جمع من الصحابة كما ان الامام كرم الله وجهه ، لما حصر الناس عثمان في داره ومنعوه الماء وارادوا قتله ، بعث اليه بثلاث قرب من الماء ، وانفذ ولديه الحسن والحسين ومواليه ومعهم السلاح الى بابه لنصرته ؛ وامرهم ان يمنعوه من الناس وقال لهما :

— اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا احداً يصل اليه بمكروه.

وبعث الزبير بن العوام ، ابنه على كره ، وارسل طلحة ابنه كذلك ؛ وانفذ عدة من اصحاب رسول الله ، ابناءهم ليمنعوا الناس ان يدخلوا على عثمان ، ارسلهم آباؤهم اقتداء بالامام وابنيه.

واشرف عثمان بن عفان من أعلى القصر فخطب الناس ، فاستقبلوه بما لا يستقبل به مثله ، ورموه بالسهام ، حتى خضب

الحسن بن علي بالدماء على بابه ، وخشي الناقمون على عثمان ان يغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيرونها فتنة ، فاخذ محمد بن ابي بكر بيدي رجلين من اعوانه وتسوروا الجدار ، ودخلوا على عثمان وليس معه الا امرأته ، والمصحف في حجره ، فصرعه محمد بن ابي بكر وقعد على صدره واخذ بلحيته فقال له عثمان :

— ارسل لحيتي يا ابن اخي ، لو رآك ابوك لساءه مكانك هذا .

فخجل محمد بن ابي بكر وخرج عنه ، ثم دخل عليه بعضهم فجرحوه وقتلوه ، وخرجوا هاربين ، وصاحت امرأته بالناس : ان امير المؤمنين قد قتل .

فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مقتولا فاكبوا عليه يبكون ، وبلغ الخبر الامام علي ، وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا حتى دخلوا على عثمان ، فاسترجعوا وبكوا ، وقال الامام لابنيه :

— كيف قتل امير المؤمنين وانتم على الباب ؟

و كان غضب الامام عظيماً لم يتأخر معه عن ضرب ابنيه الحسن والحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، ثم خرج من المنزل ، وهو اشد ما يكون غيظاً وغضباً .

***

ولقد اقام الحسين مع ابيه امير المؤمنين علي بن ابي طالب مدة خلافته ، وشهد معه الجمل وصفين وقتال الخوارج حتى قتل الامام عليه السلام شهيداً

وكان الحسين رضي الله عنه باسلاً قوياً جريئا ، برز يوماً للعدو في احدى المعارك ، فنادى هل من مبارز ؟ فاقبل عليه رجل اسمه الزبرقان وكان شديد البأس فقال له : من انت ؟

فقال : انا الحسين بن علي

فقال له الزبرقان : انصرف يابني ، فاني والله لقد نظرت الى رسول الله مقبلاً من ناحية قباء على ناقة حمراء ، وانت يومئذ قدامه فما كنت لالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بدمك .

ويذهب بعض المؤرخين الى ان الرجل الذي برز للحسين غير الزبرقان ، وانهما اتفقا بعد ذلك على الانصراف الواحد عن الآخر .

***

فلما ضرب الامام عليه السلام دخل منزله فاعترته غشية ثم افاق فدعا الحسن والحسين فقال :

« اوصيكما بتقوى الله وان لا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عونا .

«يابني عبدالمطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل امير المؤمنين ، لا تقتلن بي الا قاتلي ، انظروا اذا انا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »

ثم دعا محمداً بن الحنفية فقال له : اما سمعت ماوصيت بك اخويك؟

قال : بلى

قال : فاني اوصيك به ، وعليك ببر اخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع امراً دونهما

ثم اقبل عليهما فقال : « اوصيكما به خيراً ، فانه شقيقكما وابن ابيكما ، وانتما تعلمان ان اباكما كان يحبه فاحباه »

***

ومضى علي بن ابي طالب شهيداً الى الملأ الاعلى ، ضربه بسيف مسموم عبد الرحمن بن ملجم عليه لعنة الله ، ليلة التاسع عشر من رمضان سنة اربعين وتوفي ليلة الحادي والعشرين منه ، ودفن قبل طلوع الفجر ، ودخل قبره الحسن والحسين ومحمد بنوه عليهم السلام ، وعبد الله بن جعفر رضي الله عنه .

ونفذ حكم القتل في القاتل وفاقاً لما امر به الامام كما اجمع على

ذلك ثقاة المؤرخين.

وبايع الناس بالخلافة للحسن بن علي ، فتحرك عندئذ معاوية بن ابي سفيان نحو العراق ، ومشى امير المؤمنين الحسن نحو الشام ؛ ثم وجد من خذلان اصحابه له وتقاعسهم عن نصرته مازهده في الخلافة ، فرغب في الصلح و كتب الى معاوية بذلك واشترط عليه ان لا يأخذ احداً من اهل العراق بإحنه ، وان يؤمن الاسود والاحمر ، ويحتمل ما يكون من هفواتهم ، واشترط اموراً غير هذه لم يف له معاوية الا ببعضها

ولم يرض موقف الحسن عليه السلام بنو هاشم واغضب شقيقه الحسين ، فقال له : « انشدك الله ان لا تصدق احدوثة معاوية »

وراح عليه السلام يحث شقيقه على القتال ويرغبه في رفض الصلح ، ولكن الحسن كان في موقف كثير الاضطراب ، فانه لم يكن يأمل خيراً من شيعته وانصاره وجنده ، ففضل الصلح على امر ليس هو على يقين من نجاحه وفلاحه

***

ولقد استتب الملك لمعاوية بعد تنازل الحسن عليه السلام عن الخلافة ، وهو ملك ما استتب له الا بالسيف والمخاتلة والحيلة ، وبعد ان دامت الفتن في الاسلام دهراً وقتل من المسلمين

عدد كثير.

وليس يهمنا ان نعرض في كتابنا هذا لموقف معاوية وتاريخه واعماله وافعاله ، ولكن الذي ينكر عليه ، انه ثار على امير المؤمنين علي بن ابي طالب وهو الامام القائم ، وصاحب الحق الواجب ، وننكر اغراقه في البذل والعطاء من الخزانة العامة تعزيزاً لسياسته وتوطيداً لملكه ، وتنكبه عن منهج الخلفاء الراشدين ، ثم ما توفر على اقراره من اساليب سياسية ذهبت بالخلافة والشورى وراحت تقيم حكومة وملكاً عضوضاً ليس من الاسلام في شيء ولا دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اقره ، بل ترك الامر لجماعة المسلمين ليختاروا اصلحهم وارشدهم واوفرهم على تحمل اعباء الحكم ، والقيام بالحق والعدل

اما مبايعته ليزيد في حياته ، وهو من يعلم معاوية من الخفة والمجون والولع بالاشربة ، فهذا باعتقادي من اكبر المصائب التي نزلت بالاسلام في فترة من الزمن كان من حق الامام القائم فيها على المسلمين ان يولي عليهم اكثرهم خيراً ، واصلحهم حالاً ، واقدرهم واقواهم .

والملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وما كان لمخلوق ان يمهد لابنه الملك من بعده الا بامر الله ، وقد رأينا مصير هذا الملك الذي راح يوطده معاوية لابنه يزيد ، ويعمل المستحيل

لاثبانه والتمكين له بين الناس وفي البلاد ، فقد اراد امراً واراد الله غيره ، فكان من سقوط هذا الملك وتمزق شمله بعد سنوات لا تزيد عن اصابع اليد الواحدة ما هو مسطور في صفحات التاريخ واذا بنو حرب خلفاء معاوية ينقرضون من بعده ، فلا تقوم لهم قائمة ، ولا يفشو لهم سلطان ، ولا يثبت لهم ملك .

— ٥ —

يزيد بن معاوية

افاق يزيد بن معاوية ذات يوم من خماره فاذا به مليكاً على المسلمين ، وافاق المسلمون فاذا الذي يلي امرهم لا يتسم بما يجب ان يتسم به صاحب الامر من وفير خلق ، ورفيع صفات ، وجميل احدوثة ، واذا بينهم ، وفي مختلف امصارهم وبلدانهم رجالاً هم احق منه بالحكم ، واولى بالسلطان ، واكثر بلاء في سبيل الاسلام ، وابعد اثراً ، هذا الى جلالة واحدهم وسنه ، وموضعه من العلم ، وشريف نسبه ، وعظيم مقامه .

ولقد احس المسلمون يوم ولي يزيد الملك واستوى على عرش امية ، بشيء من الانقباض والقلق ، واستحوذ على رجالاتهم وجماعاتهم الوان من الذهول والانكار ، فقد كان ليزيد عهد معاوية شهرة طائرة ، وميل ظاهر الى العبث واللهو والاشربة والمرح ، وكان الناس يحسبون ان معاوية سيعدل عنه الى سواه من رجالات العرب او يترك الامر للمسلمين ؛ يولون عليهم من يختارونه من رجالهم وعظماءهم وذوي الحجى والمعرفة فيهم ، ولكن معاوية ابى الا ان يصيرها ملكاً عضوضاً ، وابى الا ان يسيّرها بين الناس عرشاً يضطرب

تحت ابنه وحفدته من بعده ، ولو انه اختار لحكم المسلمين غير يزيد من بنيه وغير بنيه لكان الشر هيناً ، والقضاء سهلاً محمولا ، ولكنه اراد العرش ليزيد ، ومن اعز عليه من يزيد ؟ ويزيد شاب ظاهر العبث ؛ بادي المرح ، ليس حميد الامر ، حسن المروءة ، عفيف المظهر ، والمسلمون يريدون للولاية رجلاً اكرم خلقاً ، واطهر مظهراً ؛ واعظم بلاء ، واصدق قولا وامضى امراً ، وكان من حق المليك الراحل على الاسلام والمسلمين ان يختار للولاية رجلاً من خيارهم واقوياءهم ، وان ينتخب لهم افضلهم واصلحهم وهذا واجب مفروض على الولاة وغير الولاة من الذين يلون امور الناس ، ويقضون بينهم ، ويتولون مقام صاحب الامر والنهي في امصارهم وبلدانهم .

وانه ليقع في روع المؤرخ المعاصر ، وهو يساير هذه الماضيات من الايام ، ويطلق بصره الى ما وراء الحجب ، وما خلف الستر ، يتعرف على احوال المملكة الاسلامية في ذلك العهد ، ان يصيب الغرض ويقع على الحقائق ، ويتوفر له العلم بما كانت تضطرب به النفوس في عواصم المملكة الاسلامية من قلق واضطراب ، وما شمل معالمها اواخر رجب من السنة الستين للهجرة من انقباض وذعر لما هلك معاوية وولي يزيد ؛ وما كانت تستشعر به النفوس من بوادر الفتنة ، واندلاع الثورة ، وانقطاع الرجاء

ولقدولي يزيد امور المسلمين فاستقامت ولايته سنوات قصيرة، احدث في خلالها اموراً ليس من المسلمين إلا من هو كاره لها ناقم عليها، وبحسبك هذه الارزاء الثلاثة تنتضح مدة حكمه، وتظهر في عصره، ونستقيم جميعها في زمنه، من استباحته حمى المدينة المنورة ومحاصرة مكة المكرمة، فمقتل الامام الشهيد الحسين بن علي رضي الله عنه، وواحد من هذه الارزاء ينتظم في زمن مليك من الملوك، يكفي لذهابه بمعرة الزمن ونقمة الاجيال

***

ولقد حاول مستشرقو الفرنجة في كثير من البراعة والبيان، وما يزالون يحاولون، الانتصاف ليزيد بن معاوية والتلويح الى حلمه وادبه وعلمه وسياسته ولباقته، وغير ذلك من الفضائل التي انكرها عليه موءرخو العرب، وكان اكثرهم حرارة في ذلك الاب لامنس اليسوعي الذي افرد ليزيد كتاباً خاصاً جمع فيه كل شاردة وواردة مما يتصل بحكمه ويتعلق بعهده، وذهب يخرجه للناس في صورة اقل ما يقال فيها انها طريفة جذابة محببة.

ويذهب غيره من المستشرقين الى القول بان يزيداً قد اكتوى بنار الاعصر الخالية، وخطيئات معاوية وغيره من رجالات امية، وان الثورة الفكرية التي كانت تضطرم في الصدور، وتضطرب في الافئدة قد وجدت لها مخرجاً في عهده، فذهبت تجرف ما في

طريقها من اخضر ويابس ، وراحت تصب غضبها عليه ، فهو والحالة هذه يكفر عن خطيئات سلفت ، واخطاء سبقت ، ونقمة جاشت في الصدور ، واضطرمت بين الناس والجماعات ، في مختلف امصار العربية الاسلامية .

وليس يهمنا ان نعرض لهذا الرأي بالنقد والتحليل ، خصوصاً وان كتابنا هذا لا يعرض ليزيد خاصة ولا يتناول عصره بالوصف والتأريخ ، وانما يعرض لناحية في عهده ، وفترة من زمنه ؛ ولكن اغراق المستشرقين لا ينكر ، ونصفتهم ليزيد مملوءة بالمبالغة ، بعيدة كل البعد عن الحقيقة الواقعة ، فقد اظهر يزيد اول عهده بالملك انه بعيد عن اللباقة السياسية ، وانه كثير الحدة ، شديد التورط ، لم يوفق الى اختيار عماله في مختلف الامصار ، ولم يوصهم بالتريث والتؤدة واخذ الناس بالرأفة والاحسان ، فهو والحالة هذه مسؤول عن عصره وعهده وعماله ، وما كان بطوق عبد الله بن زياد وغيره من العمال ان يخرجوا عن رأي مليكهم لو افضي اليهم امره بالحسنى والتلطف في معاملة الناقمين والغاضبين ، خصوصاً وان الثورة لم تكن ثائرة قوية ، ولا جارفة قاصمة ، فتجربده لسيف النقمة والعدوان ، واطلاقه العنان لنوابه وعماله وقواده باخذ الناس بالسيف خطيئة لا تغتفر ، وسياسة اضرت بالدولة الاسلامية اول عهدها في العمران

والتوسع في الارض والامصار .

***

وكان مولد يزيد ايام عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة خمس او ست وعشرين ، وكان ضخماً كثير اللحم كثير الشعر ، بويع له بالامر يوم مات معاوية باستخلافه له ، فلم يكن له همة حين ولي إلا بيعة النفر الذين ابوا على معاوية الاجابة الى بيعته ، والفراغ من امرهم ، فكتب الى الوليد بن عتبة عامله على المدينة يقول :

« اما بعد فان معاوية كان عبداً من عباد الله كرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له ، فعاش بقدر ، ومات باجل ، فرحمه الله قد عاش محموداً ومات ، براً نقياً »

ثم كتب في كتاب آخر :

« اما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمرو عبدالله بن الزبير بالبيعة اخذاً شديداً ، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام »

فلما اتى الوليد نعي معاوية ، بعث الى مروان بن الحكم ، وكان على المدينة قبل الوليد يستشيره في الامر ، فاشار عليه بان يبعث الساعة الى هؤلاء النفر فيدعوهم الى البيعة ، وزاد على ذلك قائلاً :

« اما ابن عمر فلا اراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير فابعث اليهما فان بايعا والا فاضرب اعناقهما »

فارسل الوليد عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو اذ ذاك غلام

حدث، الى الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير يدعوهما اليه فوجدهما في المسجد فامراه بالانصراف ، وقام الحسين ومعه جماعة من اصحابه فمشى بهم الى الوليد ، وقال لهم :

— اذا دخلت فاجلسوا على الباب ، وان دعوتكم او سمعتم صوتي قد علا فافتحوا علي باجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم .

ودخل عليه السلام على الوليد ومروان عنده ، فاقرأه الوليد كتاب يزيد ونعى اليه معاوية، فقال عليه السلام : « انا لله وانا اليه راجعون ورحم الله معاوية ، اما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سراً فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الامر واحداً » .

فلما انصرف عليه السلام قال مروان للوليد :

— عصيتني والله، لا قدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه .

قال الوليد : ويحك انشير علي بقتل الحسين ، والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله .

واتى الحسين منزله فاقام فيه تلك الليلة، وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب سنة ٦٠ من الهجرة ؛ وشغل الوليد عنه بمراسلة ابن الزبير في البيعة ليزيد ، ولكن هذا خرج من ليلته من المدينة الى

مكة ، فلما اصبح الوليد سرح الرسل في اثره فلم يدركوه ، وخرج الحسين ليلة الاحد الى مكة ، ايضاً ببنيه واخوته وبني اخيه وجل اهل بيته ، الا محمد بن الحنفية ، وبعث الوليد الى عبد الله بن عمر ، بعد خروج الحسين وابن الزبير فبايع ليزيد ، وفعل مثل ذلك ابن عباس .

ودخل الحسين مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان ، ونزل شعب علي ، فاقبل اهل مكة ، ومن كان بها من المعتمرين واهل الآفاق ، يختلفون اليه ويجتمعون عنده وتركوا ابن الزبير وكانوا قبل ذلك يتحفلون به ، فلزم ابن الزبير جانب الكعبة ، وكان يطوف ويأتي الحسين في صباح اليوم ومسائه .

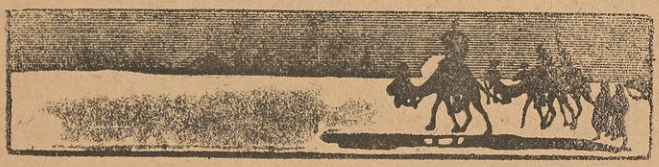

— ٦ —

كتب ورسل من الكوفة

لقد كانت العلاقات بين الحسين رضي الله عنه وشيعته في العراق قوية دائماً وابداً ، فكانت الشيعة تبعث اليه في الفترة بعد الفترة بالكتاب تلو الكتاب ، تدعوه فيه الى الثورة على معاوية والقدوم اليهم يؤيدونه ويدافعون عنه ويقاتلون في سبيله ، وكانت الرسل تمشي اليه في حياة الحسن شقيقه الاكبر وبعد وفاته ، فكان جوابه رضي الله عنه واحداً ، ينصح فيه شيعته بضرورة التريث والانتظار ، لانه وقد وعد معاوية بان لا يحرك ساكناً في حياته ، فهو والحالة هذه بار بوعده ، منفذ لقسمه ، وكان عمال معاوية في المدينة ينقلون الى مليكهم ما ينقل اليهم من هذه الاخبار والشوائع ويصورون الحسين متهافتاً على الثورة ، يحاولون اثارة معاوية على الحسين وقطع العطاء عنه ، وهو ما كان يستحق له من بيت المال ، فكان معاوية يأمرهم بان لا يعرضوا للحسين بشيء ، وان يتركوه وشأنه وكان الى ذلك كله يبعث له بعطاءه في اوقاته المعينة ، وكان عطاء الحسين رضي الله عنه يبلغ المليون درهم في السنة الواحدة[1]

---

(١) البلاذري والعقد الفريد

ولكن احد عمال معاوية وهو الوليد بن عتبة ذهب يحاول قطع العلاقات بين الحسين وشيعته ، ولا ندرى اذا كان هذا بأمر من معاوية ، فلما انكر الحسين ذلك من العامل قال له هذا :

— ليت حلمنا عنك لايدعو جهل غيرنا اليك !!

وكان الوليد والياً محبباً ، وقد ذكر عنه ابن عباس « انه لما ولي على المدينة لم يترك عانياً الا اطلقه ، ولا غارماً الا ادى عنه »

واذا كانت هذه صفة الوليد ، فقد يكون غرضه مما حاوله من قطع العلاقات بين الحسين وانصاره ان لايدع لمعاوية سبيلاً الى النقمة عليه . . .

وكان اشد الشيعة حرارة ورغبة في الثورة ، شيعة الكوفة ، فانهم لما علموا بوفاة معاوية وامتناع الحسين عن بيعة يزيد ، ونزوله مكة ، اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد الخزاعي ؛ فخطبهم سليمان قائلا : « ان حسيناً قد خرج الى مكة ، وانتم شيعته وشيعة ابيه ، فان كنتم تعلمون انكم ناصروه ومجاهدو عدوه ، فاكتبوا اليه ، وان خفتم الفشل والوهن فلا تغروه »

قالوا : لا بل نقاتل عدوه ونقتل انفسنا دونه

ثم اجمعوا امرهم على ارسال الكتاب الآتي اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن علي امير المؤمنين (عليه السلام) من سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن

شداد وحبيب بن مظاهر وعبد الله بن وال وشيعته من المؤمنين، سلام الله عليك، اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو ابيك من قبل الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي ابتزهذه الامة امرها وغصبها فيأها، وتأمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل اخيارها واستبقي اشرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبعداً له كما بعدت ثمود ثم انه ليس علينا امام، فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير في قصر الامارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا جماعة ولانخرج معه الى عيد ولو بلغنا انك اقبلت اخرجناه حتى يلحق بالشام والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يا ابن رسول الله وعلى ابيك من قبلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم »

وحمل كتاب اهل الكوفة الى الحسين عليه السلام عبد الله ابن مسمع الهمذاني، وعبد الله بن وال، وخرجا مسرعين حتى قدما على الحسين بمكة لعشر مضين من شهر رمضان؛ وكرّ اهل الكوفة بعد يومين من ذهاب كتابهم هذا، فانفذوا قيس بن مشهر الصيداوي وعبد الله وعبد الرحمن ابني شداد الارحبي، وعمارة بن عبد الله السلولي الى الحسين يحملون نحو مائة وخمسين صحيفة، من الرجل والاثنين والثلاثة والاربعة يسألونه القدوم عليهم؛ فراح الامام يبحث الامر من جميع اطرافه ومختلف طرائقه، وانتظر اهل الكوفة يومين آخرين فسرحوا اليه هانيء بن هانيء السبيعي، وسعيد بن عبد

الله الحنفى يحملون اليه رضي الله عنه الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم للحسين بن علي عليهما السلام من شيعته من المؤمنين المسلمين

«اما بعد ، فان الناس ينتظرونك ،لا رأي لهم غيرك ، فالعجل العجل ثم العجل العجل والسلام»

ثم كتب اليه بعض رجالات الكوفة كتاباً جاء فيه :

« اما بعد فقد اخضر الجناب ، واينعت الثمار فاذا شئت فاقبل على جند لك مجند والسلام »

وتلاقت الكتب وحاملوها عند الحسين، فقرأ الكتب وسأل اصحابها عن الناس ، ثم كتب مع هانيء بن هانيء ، وسعيد بن عبد الله ، وكانا آخر الرسل الكتاب التالي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي الى الملأ من المؤمنين المسلمين .

اما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم ؛ وقد بعثت اليكم باخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي مسلم بن عقيل ،وامرته ان يكتب الي بحالكم وامركم ورأيكم ، فان كتب الي انه قد اجتمع رأي ملأكم وذوي الحجى منكم على مثل ماقدمت به رسلكم ،وقرأت في كتبكم ، فاني اقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب ، القائم بالقسط ، العامل بالحق ، الحابس نفسه

على ذات الله والسلام »

ولقد اراد الحسين رضي الله عنه بارسال مسلم ان يطمئن الى موقف اهل الكوفة ، ويستوثق من نصرتهم ، ويتعرف على عدد الشيعة فيهم ، وكان اصحابه قد اغرقوا في نصحه بعدم الاطمئنان لهم والايمان بوعودهم ، ذلك انهم قد تثاقلوا عن نصرة ابيه ونكثوا بيعة اخيه ، فلا يبعد ان يتوفروا الى مثل هذا معه ، فارسل مسلماً رسولاً من قبله يدرس له الحالة ، ويبحث الامور ، ويتقدم له بالخبر اليقين .

***

ومشى مسلم بن عقيل بن ابي طالب الى الكوفة ونزل في دار المختار بن ابي عبيد ؛ فكانت الشيعة تختلف اليه فيقرأ عليهم كتاب الحسين ، فبايعه من الناس ثمانية عشر الفاً كما اجمع على ذلك اكثر المؤرخين ؛ وكان امير الكوفة النعمان بن بشير فلما بلغه ذلك صعد المنبر ؛ فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال :

«اما بعد فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا الى الفتنة ، والفرقة فان فيها يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال ، واني لا اقاتل الا من يقاتلني ، ولا أثب الا على من وثب عليّ ، ولكنكم ان ابديتم صفحتكم لي ، ونكثتم بيعتكم ، فوالله لاضربنكم بسيفي

ما ثبت قائمه في يدي»

و كان النعمان حليماً نقياً ، فقال له احد شيعة بني أمية : « هذا رأي المستضعفين » فقال له النعمان : « لان اكون من المستضعفين وانا في طاعة الله احب اليّ من ان أكون قوياً في معصيته !» فكتب هذا الى يزيد بن معاوية بالامر ، وأخبره بقدوم مسلم بن عقيل الى الكوفة ، ومبايعة الناس له ، وضعف النعمان بن بشير ، و كتب اليه غيره بمثل ذلك ، فلما تواترت الكتب على يزيد بهذا المعنى استشار مولى معاوية سرجون بالامر ، فنصحه هذا بتولية عبيد الله بن زياد على الكوفة ، و كان عبيد الله على البصره ، فضم اليه يزيد البلدين و كتب له بذلك ، وامره ان يسير الى مسلم بن عقيل في الكوفة فيأخذه او يقتله او ينفيه ، فلما وصل كتاب يزيد الى عبيد الله ، اخذ يرتب شؤونه وينظم اغراضه قبل ان يغادر البصرة الى مقره الجديد .

ووصل في هذه الاثناء كتاب من الحسين عليه السلام الى جماعة من اشراف البصرة ؛ مع مولى له اسمه سليمان يدعوهم فيه الى نصرته ولزوم طاعته ، منهم يزيد بن مسعود النهشلي والمنذر بن الجارود العبدي ، فجمع يزيد بن مسعود بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلما حضروا ، قال : «يابني تميم كيف ترون موضعي منكم وحسبي منكم » فقالوا : بخ بخ انت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت

في الشرف وسطاً وتقدمت فيه اشواطا

قال : فاني قد جمعتكم لامر اريد ان اشاوركم فيه واستعين بكم عليه، فقالوا : انا والله نمنحك النصيحة ونجهد لك الرأي فقل حتى نسمع، فقال :

« ان معاوية مات فاهون به والله هالكا ومفقوداً، الا وانه قد انكسر باب الجور والاثم وتضعضعت اركان الظلم

«وكان قد احدث بيعة عقد بها امراً ظن انه قد احكمه وهيهات الذي اراد ، اجتهد والله، ففشل وشاور فخذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين ويتأمر عليهم بغير رضى منهم، مع قصر حلم وقلة علم، لا يعرف من الحق موطيء قدميه فاقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدين افضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي امير المؤمنين وابن رسول الله ذو الشرف الاصيل والرأي الاثيل، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف وهو اولى بهذا الامر لسابقته وسنه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير ويحسن الى الكبير، فاكرم به راعي رعية وامام قوم، وجبت لله به الحجة وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحق ولا تسكعوا في وهد هذا الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم الى ابن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونصرته، والله لا يقصر احد عن نصرته إلا اورثه الله تعالى الذل في ولده والقلة في

عشيرته وها انا ذا قد لبست للحرب لامتها وادرعت لها بدرعها من لم يقتل يمت ومن يهرب لم يفت، فاحسنوا رحمكم الله رد الجواب»

فتكلمت بنو حنظله فقالوا: اباخالد نحن نبل كنانتك وفرسان عشيرتك ان رميت بنا اصبت وان غزوت بنا فتحت، لانخوض والله غمرة الا خضناها، ولا تلقى والله شدة الا لقيناها، تنصرك باسيافنا ونقيك بابداننا اذا شئت.

وتكلمت بنو سعد بن زيد فقالوا:

«ابا خالد ان ابغض الاشياء الينا خلافك والخروج من رأيك وقد كان صخر بن قيس امرنا بترك القتال فحمدنا ما امرنا وبقي عزنا فينا، فامهلنا نراجع المشورة ونأتك برأينا»

وتكلمت بنو عامر بن تميم فقالوا:

«ابا خالد نحن بنو ابيك وحلفاؤك؛ لا نرضى ان غضبت ولا نوطن ان ظعنت، والامر اليك فادعنا نجبك، ومرنا نطعك، والامر اليك اذا شئت»

فقال: «والله يابني سعد لئن فعلتموها لارفع الله السيف عنكم ابداً».

ثم كتب الى الحسين (عليه السلام):

«اما بعد فقد وصل الي كتابك وفهمت ما ندبتني اليه ودعوتني

له من الاخذ بحظي من طاعتك ، والفوز بنصيبي من نصرتك ، وان الله لم يخل الارض قط من عامل عليها بخير ، ودليل على سبيل نجاة وانتم حجة الله على خلقه ، ووديعته في ارضه ، تفرعتم من زيتونة احمدية هو اصلها ، وانتم فرعها ، فاقدم سعدت باسعد طائر فقد ذللت لك اعناق بني تميم وتركتهم اشد تتابعاً في طاعتك من الابل الظماى لورود الماء يوم خمسها ، وقد ذللت لك بني سعد وغسلت دون قلوبها بماء سحاب مزن حين استهل برقها فلمع »

واما المنذر بن الجارود فانه جاء بالكتاب والرسول الى عبيد الله بن زياد ، لانه خاف ان يكون الكتاب مدسوساً من عبيد الله ، و كانت ابنته زوجة عبيد الله ، فاخذ ابن زياد الرسول فصلبه ، ثم صعد الى المنبر فقال :

« اما بعد فان امير المؤمنين ولاني الكوفة وانا غاد اليها الغداة وقد استخلفت عليكم اخي عثمان بن زياد ، فاياكم والخلاف والارجاف ، فوالذي لا آله غيره ، لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لاقتلنه ، وعريفه ووليه ، ولآخذن الادنى بالاقصى حتى تستمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، انا ابن زياد اشبهته من بين من وطيء الحصى »

***

وكذلك اراد ابن زياد ان يوطد امر البصرة قبل ان

يمشي الى الكوفة ، والى ما ندبه له يزيد بن معاوية من القضاء على الشيعة فيها ، وخطبته هذه بما فيها من قوة وتهديد ، وانذار وتلويح وتلميح ، تدلنا على ما كان يدور في خلده لما القاها ، وقد ظن انه قد اخمد فيها الثورة ، ووطد الامر ، وقمع الخلاف .

— ٧ —

جاسوس ابن زياد

كان النعمان بن بشير عاملاً على الكوفة في ذلك العهد ، وكان رجلاً صالحاً ديناً ، يدين لبني امية بالطاعة ، ويكره انتقاض العرب عليهم ، ولكنه كان ضعيفاً ليناً في ما يتصل بسياسة الشيعة وآل البيت ، وكان يكره ان يصاب احد منهم في عهده ، او يراق دم في مصره ، فلما نزل مسلم الى الكوفة ؛ تجاهل النعمان وجوده ، ولم يعرض له بخير ولا شر ، فانكر ذلك انصار بني امية وكاتبوا يزيداً بموقفه وضعفه ولينه ، فسأل يزيد (ابن سرجون) مولى معاوية رأيه فنصحه بان يولي ابن زياد الكوفة كما قدمنا ، وكان يزيد له كارهاً وعليه ناقماً ، وقال سرجون يحاوره :

— ارأيت لو نشر لك معاوية اكنت آخذاً برأيه ؟

فقال يزيد : نعم

فقال سرجون : « اذن فابعث بالولاية الى ابن زياد فان معاوية قد عهد له بها قبل وفاته .

***

وكان عبيدالله بن زياد شاباً شديداً قوياً بطاشاً ، تولى خراسان

اول عهده بالادارة ، وقبل وفاة معاوية [1] فاظهر مدة ولايته فيها بطشاً وجرأة وشدة وقوة ، وحارب الترك في تلك الاصقاع مدة سنتين ، ثم نقل من خراسان الى امارة البصرة ، ولما توفي زياد بن ابيه وعاد شأن الخوارج الى الظهور ، اشتد عبيد الله في قمعهم وحربهم وقتلهم شر قتلة ، وشردهم في البلاد والامصار ، وكان عبيد الله دون ابيه ذكاء وبلاغة ، ولكنه كان مثله شدة وقسوة ، فلما ولاه يزيد الكوفة مع البصرة ، اصبح والي العراق كله من اقصاه الى اقصاه ونائب المليك فيه .

واقبل ابن زياد الى الكوفة في صباح يوم شديد الحر عظيم القيظ ، وفي ركابه وجوه اهل البصرة كشريك بن الاعور والمنذر بن الجارود وغيرهم ، ودخل الكوفة وعليه عمامة سوداء وهو متلثم ، وكان قد بلغ اهلها ان الحسين عليه السلام ، مقبل عليهم ، فلما ابصروه وجماعته ظنوه اياه ، فاخذ لا يمر على جماعة من الناس الا سلموا عليه ودعوا وقالوا :

— مرحباً بابن بنت رسول الله ، قدمت خير مقدم

ومشى ابن زياد الى دار الامارة لا يكلمهم ، وقد رأى من تباشرهم بالحسين ما ساءه ؛ وخرج الناس من دورهم يهتفون له ،

---

(١) يقول ابن عساكر انه كان في الخامسة والعشرين من عمره لما ولي خراسان .

ويسيرون خلفه ، فلما سمع النعمان بن بشير عامل الكوفة جلبة الناس وهتافهم ، ايقن بقدوم الحسين ، فاغلق عليه باب القصر ، وانتهى اليه عبيد الله ومعه الخلق يصيحون ، فقال له النعمان من وراء الباب :

— انشدك الله الا تنحيت ، والله ما انا مسلم لك امانتي ومالي في قتالك من أرب

فقال له عبيد الله بن زياد : «افتح لا فتحت لقد طال ليلك»

وسمعها انسان خلفه ، فنكص الى القوم يقول :

— ياقوم ، هذا ابن مرجانة — ابن زياد — والذي لا اله غيره .

ولما سمع النعمان صوت ابن زياد فتح له الباب ، فدخل ، واغلقه خلفه وتفرق الناس .

ورأى ابن زياد ان يستعجل الحوادث فلما اصبح نادى مناديه : « الصلاة جامعة » وكان من عادة كل امير جديد ان يدعو الناس الى الصلاة يقرأ عليهم كتاب الامارة ، ويقف فيهم على منبر المسجد خطيباً ، يتناول سياسته بشيء من التفصيل او القصد ، وفاقاً للظروف الحاضرة

وفي صباح اليوم التالي اجتمع الناس للصلاة ، فخرج ابن زياد

اليهم ، وصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« اما بعد فان امير المؤمنين اصلحه الله ولاني مصركم وثغركم وفيئكم ، وامرني بانصاف مظلومكم ، واعطاء محرومكم ، وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم ، وانا متبع فيكم امره ، فانا لمحسنكم كالوالد البر ، وسوطي وسيفي على من ترك امري وخالف عهدي »

ثم نزل عن المنبر ، وارتحل النعمان بن بشير نحو وطنه بالشام ، واخذ ابن زياد العرفاء والناس اخذاً شديداً فقال لهم :

« اكتبوا الي الغرباء ومن فيكم من طلبة امير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية والخوارج واهل الريب الذين شأنهم الخلاف والنفاق والشقاق ، فمن كتبهم لنا برىء ، ومن لم يكتب لنا احداً فليضمن لنا في عرافته ان لا يخالفنا منهم مخالف ، ولا يبغي علينا منهم باغ ، فمن لم يفعل برئت منه الذمة ، وحلال لنا دمه وماله ، وايما عريف وجد في عرافته من بغية امير المؤمنين احد لم يرفعه الينا صلب على باب داره والغيت تلك العرافة من العطاء »

ولما سمع مسلم بن عقيل مجيء عبيد الله الى الكوفة ومقالته التي قالها وما اخذ به العرفاء والناس ، خرج من الدار التي كان فيها بعد عتمة ، الى دار هاني بن عروة المرادي ، وكان من اشراف اهل

الكوفة ودخل في بابه وارسل اليه : اتيتك لتضيفني وتجيرني

قال له هذا : « لقد كلفتني شططاً ولا دخولك داري وثقتك بي لاحببت ان تنصرف لشأنك، غير انه لزمني من ذلك ذمام . ادخل فدخل

واخذت الشيعة تختلف اليه في دار هانيء على تستر واستخفاء من عبيد الله ؛ وتواصوا بالكتمان ، وجاء شريك بن الاعور، حتى نزل على هانيء في داره ، وكان من كبار الشيعة ، ولما تحول مسلم بن عقيل الى دار هانيء بن عروة ، وبايعه ثمانية عشر الفاً من اهل الكوفة كتب كتاباً الى الحسين مع عابس بن ابي شبيب الشاكري ، يخبره بالبيعة له واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم اياه ، وفيه :

« اما بعد فان الرائد لا يكذب اهله، وقد بايعني من اهل الكوفة ثمانية عشر الفاً ، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي ، فان الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ، ولا هوى والسلام »

***

ودعا ابن زياد مولى له يقال له معقل التميمي واعطاه ثلاثة آلاف درهم وامره ان يسأل عن مسلم بن عقيل، ويعلمه انه غريب يحب هذا الامر ويدفع اليه المال، فلم يزل الجاسوس يتلطف، حتى دل

على شيخ من اهل الكوفة يلي البيعة للحسين، وهو مسلم بن عوسجة الاسدي، فقصده في المسجد الاعظم وهو يصلي، وراح ينتظره حتى قضى صلاته فاخبره انه من اهل الشام، انعم الله عليه بحب اهل البيت، وتباكى له وسأله ان يدله على صاحبه ليبايعه، فقال له ابن عوسجة:

— لقد سرني لقاؤك اياي وساءني، فاما ما سرني من ذلك فما هداك الله له من حبك اياهم، واما ما ساءني فمعرفة الناس اياي بهذا الامر قبل ان يستحكم.

فطلب منه معقل ان يأخذ البيعة عليه، فاخذ بيعته واخذ عليه المواثيق المغلظة ليناصحن، واخذ يختلف مع الناس، وطلب له الاذن فاذن له مسلم بن عقيل واخذ بيعته وامر ابا ثمامة الصائدي بقبض المال منه، وهو الذي كان يقبض اموالهم وما يعين به بعضهم بعضاً ويشتري لهم السلاح، وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، واقبل معقل يختلف اليهم فهو اول داخل وآخر خارج حتى منهم ما احتاج اليه ابن زياد من امرهم، فكان يخبره به وقتاً فوقتاً، وخاف هانيء بن عروة عبيد الله على نفسه، وكان هانيء احد الامراء الكبار، ولم يسلم على عبيد الله منذ قدم وانقطع عن حضور مجلسه فتمارض، وروى ابن الاثير انه مرض فاتاه عبيد الله يعوده فقال له عمارة بن السلولي:

— قد امكنك الله من هذه الطاغية فاقتله

فقال هانيء : « ما احب ان يقتل في داري »

ومرض بعد جمعة شريك بن الاعور ، وهو في دار هانيء وكان كريماً على ابن زياد وعلى غيره من الامراء ، فارسل اليه عبيد الله ، اني رائح اليك العشية ؛ فقال لمسلم :

— ان هذا الفاجر عائدي العشية ، فاذا جلس اخرج اليه فاقتله ثم اقعد في القصر

وجاء عبيد الله وجلس فاطال جلوسه ، وامتنع مسلم عن قتله لكراهية قتله في دار هانيء ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الايمان قيد الفتك فلا يفتك مؤمن بمؤمن » كما اخبر مسلم بذلك لما سأله شريك ما منعك من قتله ، قال : « خصلتان » وذكر ما تقدم

فقال له شريك : « لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً »

ولبث شريك بعد ذلك ثلاثاً ثم مات

وذكر عبيدالله بن زياد بعد ايام ، هانيء بن عروة لجلسائه وقال :

— مالي لا ارى هانئاً ؟

فقالوا : هو شاك

فقال : « لو علمت بمرضه لعدته »

ودعا محمد بن الاشعث، واسماء بن خارجة، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، فقال لهم :

— ما يمنع هانيء بن عروة من اتياننا ؟

فقالوا : « ما ندري وقد قيل انه عليل منذ ايام »

قال : « بلغني انه بريء وهو يجلس على باب داره ، فالقوه ومروه ان لا يدع ما عليه من حقنا، فاني لا احب ان يفسد عندي مثله من اشراف العرب»

فاتوه عشية وهو جالس على بابه،فاخبروه ان الامير ذكره ، وقال : « لو علم انه شاك لعاده ، وانه بلغه انه يجلس على عتبة باب داره وقد استبطأه » واقسموا عليه ان يركب معهم ليسل سخيمة قلبه ، فركب بغلته وسار معهم فلما دخل القوم على عبيدالله ابن زياد وهانيء معهم قال ابن زياد :

— اتتك بخائن رجلاه

فلما دنى هانيء من ابن زياد وعنده شريح القاضي التفت نحوه فقال :

اريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وكان اول ما قدم مكرما له

فقال له هانيء : وما ذاك ايها الامير ؟

قال: ايه ياهانيء بن عروة، ما هذه الامور التي تربص في دارك لامير المؤمنين وعامة المسلمين، جئت بمسلم بن عقيل فادخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك، وظننت ان ذلك يخفى علي ؟

قال : « ما فعلت ذلك وما مسلم عندي »

قال : « بلي قد فعلت »

فلما كثر النزاع بينهما، دعا ابن زياد معقلاً جاسوسه، فجاء حتى وقف بين يديه فقال له :

— اتعرف هذا ؟

قال : نعم

وعلم هانيء عند ذلك انه كان عيناً عليهم وانه اتاه باخبارهم، فسقط في يده ساعة، ثم راجعته نفسه فقال :

— اسمع مني وصدق مقالتي، والله ما دعوته منزلي، ولكنه جاءني يسألني النزول فاستحييت من رده

قال : ائتني به

قال : لا اجيئك به ابداً انا اجيئك بضيفي تقتله، والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه

قال : ادنوه مني فادنى، فاعترض وجهه بالقضيب، فلم يزل يضرب به انفه وجبينه وخده حتى كسر انفه، وسيل الدماء على

ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، واهوى هانيء الى سيف شرطي ليسله فدفع عن ذلك

فقال عبيد الله : « قد احل الله دمك » وامر بـه فالقوه في بيت في جانب القصر حبس فيه ، فقام اسماء بن خارجة فقال :

— ارسل غدا نحن اليوم ؛ امرتنا ان نجيئك بالرجل حتى اذا جئناك به هشمت انفه ووجهـه ؛ فامر به عبيد الله فلهز وضرب .

فقال محمد بن الاشعث : رضينا بما رأى الامير ، لنا كان ام علينا ، انما الامير مؤدب

وبلغ عمرو بن الحجاج ان هانئاً قتل ، فاقبل في مذحج حتى احاط بالقصر ونادى :

— انا عمر بن الحجاج وهذه فرسان تدحج ووجوهها ، لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة ، وقد بلغهم ان صاحبهم قتل فاعظموا ذلك

فقال عبيد الله لشريح القاضي ، وكان حاضراً ، ادخل على صاحبهم فانظر اليه ثم اخرج اليهم فاعلمهم انه حي فدخل شريح فنظر اليه ، فقال هانيء لما رأى شريحاً وسمع الضجة : اني لاظنها اصوات مذحج يالله يا للمسلمين .

فخرج شريح ومعه جاسوس لابن زياد فقال لهم :

— ان الامير امرني بالدخول عليه فاتيته ، فامرني ان اعرفكم انه حي، وان الذي بلغكم من قتله باطل ، وانما حبسه ليسأله

فقال عمرو بن الحجاج واصحابه : « اذا لم يقتل فالحمد لله » وانصرفوا.

— ٨ —

مقتل رسول الحسين

احس مسلم بن عقيل مندوب الحسين رضي الله عنه الى اهل الكوفة ، بعد سجن هاني ء وضربه ، ان عليه النهوض والمدافعة عنه ، واستخلاصه من ايدي ظلامه ، فنهض في جماعته ورجاله ومن بايعه على طاعة الحسين ، وشد ازره ، وحدث احد الرواة فقال: « انه كان اول من دخل الدار على مسلم يحدثه بما وقع لهاني ء ، فامره مسلم ان ينادي بشعاره (يامنصور امت) فنادى ، فاجتمع اليه من اهل الكوفة اربعة آلاف ، فعقد مسلم لعبد الرحمن بن كريز الكندي على ربع كندة وربيعة ، وقال له : سر امامي في الخيل وعقد لمسلم بن عوسجة الاسدي على ربع مذحج واسد ، : وقال : انزل في الرجال ، وعقد لابي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان ، وعقد للعباس بن جعدة بن هبيرة على قريش والانصار ، ولما قدم مسلم مقدمته وعين ميمنته وميسرته ، سار في القلب نحو القصر الى عبيد الله ، فضاق بعبيد الله امره وليس معه في القصر الا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من وجوه اهل الكوفة واهل بيته ومواليه ، فعمد عندئذ الى الحيلة والمكر يحارب بهما خصومه

فدعا كثير بن شهاب وامره ان يخرج فيمن اطاعه من مذحج فيسير في الكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم الحرب ويحذرهم عقوبة السلطان، وامر محمد بن الاشعث ان يخرج فيمن اطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية الامان لمن جاءه من الناس؛ وقال لمن كان عنده من رجالات الكوفة مثل ذلك وحبس باقي وجوه الناس عنده استيحاشاً اليهم لقلة عدد من معه من الناس

فخرج كثير بن شهاب يخذل الناس عن مسلم، وخرج محمد ابن الاشعث حتى وقف عند دور بني عمارة، فبعث ابن عقيل الى محمد بن الاشعث عبد الرحمن بن شريح الشبامي، فلما رأى ابن الاشعث كثرة من اتاه تأخر عن مكانه، واخذ هو وكثير بن شهاب والقعقاع بن شوروشبث ابن ربعي، يردون الناس عن اللحاق بمسلم ويخوفونهم السلطان حتى اجتمع اليهم عدد كبير من قومهم وغيرهم، فصاروا الى ابن زياد ودخل القوم معهم واقام الناس مع ابن عقيل يكثرون حتى المساء وامرهم شديد، فبعث عبد الله الى الوجوه فجمعهم وطلب منهم ان يشرفوا على الناس ويردونهم ويخذلونهم عن ابن عقيل ويقولون :

— الحقوا باهاليكم ولا تعرضوا انفسكم للقتل فان هذه جنود امير المؤمنين قداقبلت، وقد اعطى الامير عهداً لئن لم تنصرفوا من عشيتكم، ان يحرم ذريتكم العطاء وان يأخذ البريء بالسقيم

والغائب بالشاهد ، حتي لا يبقى فيكم بقية من اهل المعصية الا اذاقها وبال ما جرت ايديها

وتكلم الاشراف بنحو من هذا الكلام وجعلوا يمنون اهل الطاعة بالزيادة والكرامة ، ويخوفون اهل المعصية الحرمان والعقوبة .

و كان الرجل يأتي ابنه واخاه وابن عمه فيقول : انصرف فان الناس يكفونك ، وتجيء المرأة الى ابنها وزوجها ، فتقول : غداً يأتيك اهل الشام فما تصنع بالحرب وتتعلق به حتى يرجع

فما امسى مسلم بن عقيل الا واصحابه يتفرقون ، حتي صار في خمسمائة ثم بقي في ثلاثمائة ثم لم يبق معه الا ثلاثون رجلا صلى بهم المغرب في المسجد ، فلما اختلط الظلام ذهب اولئك ايضاً ولم يبق معه احد يدله على الطريق ، ولا من يدله على منزله ، او يواسيه بنفسه ان عرض له عدو ، فمضى على وجهه في ازقة الكوفة لا يدري اين يذهب ، حتى خرج الى حي كندة فانتهى الى باب امرأة يقال لها طوعة ام ولد كانت للاشعث بن قيس ، فاعتقها فتزوجها اسيد الحضرمي فولدت له بلالا ، وكان بلال خرج مع الناس ولمه تنتظره فسلم عليها ابن عقيل فردت عليه ، فقال لها :

— يا امة الله اسقني ماء

فدخلت فسقته ، وادخلت الاناء ثم خرجت : وهو جالس

مكانه فقالت :

— ياعبد الله ألم تشرب؟

قال : بلى

قالت : اذهب الى اهلك ، فسكت، ثم عادت فقالت ،مثل ذلك فسكت ، ثم قالت له : مر الي اهلك عافاك الله فانه لايصلح لك الجلوس على بابي ولا احله لك.

فقام وقال : « يا امة الله مالي في هذا المصر منزل ولاعشيرة، فهل لك في اجر ومعروف ولعلي مكافئك به بعد اليوم

فقالت : وما ذاك

قال انا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء القوم، وغروني وخذلوني

فادخلته بيتاً في دارها غير البيت الذي تسكن فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعش وجاء ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج منه فقال :

— والله لتريبني كثرة دخولك هذا البيت منذ الليلة وخروجك منه ، ان لك لشأناً

فقالت له : لا تسألني عن شيء

فالح عليها فقالت :

— يابني لا تحدثن احداً من الناس بما اخبرك به ، واخذت

عليه الايمان فحلف لها فاخبرته ، فاضطجع وسكت

***

وجعل ابن زياد لا يسمع لاصحاب ابن عقيل صوتاً فقال لاصحابه : اشرفوا فانظروا هل ترون منهم احداً ، فاشرفوا فلم يروا احداً ، فاعلموا ابن زياد ففتح باب السدة التي في المسجد ، وكان المسجد مع القصر ، فخرج فيمن كان معه وجلس اصحابه حوله ووضعت الشموع والقناديل ، وامر عمرو بن نافع فنادى بالكوفة «الا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب والمقاتلة صلى العشاء الا في المسجد»

فلم يكن الا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس واقام مناديه الصلاة واقام الحرس خلفه وامرهم بحراسته من ان يدخل عليه من يغتاله ، وصلى بالناس صلاة العشاء ثم صعد المنبر فقال :

« اما بعد فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد اتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ومن جاءنا به فله ديته ، اتقوا الله عباد الله والزموا طاعتكم وبيعتكم ولا تجعلوا على انفسكم سبيلا»

ونزل ابن زياد عن المنبر بعد ان صدر امره الى الحصين بن نمير بمراقبة سكك الكوفة والقبض على ابن عقيل ، وكان الحصين على شرطته ، وعقد لعمرو بن حريث رايته وامره على الناس

فلما كان الصباح جلس مجلسه واذن للناس فدخلوا عليه ، واقبل محمد بن الاشعث فقال له ابن زياد : « مرحباً بمن لا يستغش ولا يتهم » واقعده معه على سريره .

واصبح ابن تلك العجوز وهو بلال بن اسيد الذي آوت امه ابن عقيل فغدا الى عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وهو حينئذ غلام فاخبره بمكان ابن عقيل عند امه ، فاقبل عبد الرحمن حتى اتى اباه وهو عند ابن زياد فساره ، فسأله : اين زياد

قال : اخبرني ان ابن عقيل في دار من دورنا

فنخس بالقضيب في جنبه وقال : « قم فأتني به الساعة »

وبعث الى عمر بن حريث خليفته على الناس : « ان ابعث مع ابن الاشعث ستين او سبعين رجلا كلهم من قريش »

فسار ابن الاشعث ومعه عبيد الله بن العباس السلمي في ستين او سبعين رجلاً من قريش حتى اتوا الدار التي فيها مسلم بن عقيل ، فلما سمع وقع حوافر الخيل واصوات الرجال علم انه قد اتى ، فخرج اليهم بسيفه واقتحموا عليه الدار فشد عليهم فضربهم بسيفه ، حتى اخرجهم من الدار ؛ ثم عادوا اليه فشد عليهم ، فلما رأوا ذلك اشرفوا عليه من فوق ظهر البيت واخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في اطنان القصب ثم يلقونها عليه من فوق البيت ، فلما رأى ذلك خرج عليهم مصلتاً سيفه فقاتلهم في السكة ، فاقبل عليه محمد بن

الاشعث وقال له :

— يابني لك الامان ، لا تقتل نفسك

و كان مسلم قد اثخن بالجراح وعجز عن القتال فاسند ظهره الى جنب تلك الدار ، فاعاد ابن الاشعث عليه القول ، لك الامان ، فقال : أ آمن انا

قال : نعم ، وامنه القوم ايضاً

فقال ابن عقيل : اما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي بايديكم وانى ببغلة فحمل عليها ، فاجتمعوا حوله ونزعوا سيفه فيئس عند ذلك من نفسه ودمعت عيناه ، ثم قال :

— هذا اول الغدر

قال له محمد بن الاشعث : ارجو ان لا يكون عليك بأس .

فقال : وما هو الا الرجاء ، اين امانكم ؟ انا لله وانا اليه راجعون ، وبكى

فقال له عبد الله بن العباس السلمي : ان من يطلب مثل الذي تطلب اذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك

فقال : اني والله ما لنفسي ابكي ولا لها من القتل ارثي ، ولكن ابكي لاهلي المقبلين اليكم ، ابكي للحسين وآل الحسين ، ثم قال لمحمد بن الاشعث : اني اراك ستعجز عن اماني فهل عندك خير ، تستطيع ان تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً فاني لا

لا اراه الا قد خرج اليكم اليوم مقبلاً ، او هو خارج غداً هو واهل بيته، وليقل له : ان ابن عقيل بعثني اليك وهو اسير في ايدي القوم لا يرى انه يمسي حتى يقتل ، فارجع فداك ابي وامي باهل بيتك ولا يغرك اهل الكوفة فانهم اصحاب ابيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت او القتل ، ان اهل الكوفة كذبوك وليس لمكذوب رأي

فقال ابن الاشعث « والله لافعلن، ولاعلمن ابن زياد اني قد امنتك »

ودعا ابن الاشعث اياس بن العثل الطائي وقال له :

« الق حسيناً فابلغه هذا الكتاب » و كتب فيه الذي امره ابن عقيل وقال له : هذا زادك وجهازك ومتعة لعيالك، واعظاء راحلة وكل ما يحتاج اليه في سفره

واقبل ابن الاشعث بابن عقيل الى باب القصر فاستأذن فاذن له ، فدخل على ابن زياد واخبره خبر ابن عقيل وما كان من امانه له ؛ فقال له عبيد الله :

— وما انت والامان كأنا ارسلناك لتؤمنه ، انما ارسلناك لتأتينا به

فسكت ابن الاشعث ، وانتهى بابن عقيل الى باب القصر

وقداشتد به العطش وعلى باب القصر اناس ينتظرون الاذن، واذا قلة فيها ماء بارد موضوعة على الباب، فقال مسلم بن عقيل:

— اسقوني من هذا الماء

فقال مسلم بن عمرو: اتراها ما ابردها، والله لا تتذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم

فقال له ابن عقيل: ويلك من انت

قال: انا من عرف الحق اذا انكرته، ونصح لامامه اذا غششته واطاعه اذا خالفته، انا مسلم بن عمرو الباهلي

فقال له ابن عقيل: «لامك الثكل ما اجفاك وافظك واقسى قلبك»

ثم جلس وتساند الى حائط، وبعث عمارة بن عقبة غلاماً له فجاءه بقلة عليها منديل وقدح فصب فيه ماء وقال له: اشرب!

فاخذ كلما شرب امتلأ القدح دماً من فيه، فلا يقدر ان يشرب، ففعل ذلك مرة ومرتين، ولما ذهب في الثالثة ليشرب سقطت ثنيتاه في القدح، فقال: الحمد لله لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته

وخرج رسول ابن زياد فامر بادخاله اليه فلما دخل لم يسلم عليه بالامرة، فقال له الحرسي:

— الا تسلم على الامير؟

فقال : ان يريد قتلي فما سلامي عليه، وان كان لا يريد قتلي ليكثرن سلامي

فقال له ابن زياد : لعمري لتقتلن

قال : كذلك!! قال : نعم

قال فدعني اوصي الى بعض قومي ، قال: افعل

فنظر مسلم الى جلساء عبيد الله وبينهم عمر بن سعد بن ابي وقاص ؛ فقال: ياعمر ان بيني وبينك قرابة ولي اليك حاجة وقد يجب لي عليك نجح حاجتي ، وهي سر

فامتنع عمر ان يسمع ، فقال له عبيد الله :

— لم تمتنع ان تنظر في حاجة ابن عمك ؟

فقام معه وجلس حيث ينظر اليهما ابن زياد، فقال مسلم له :

— ان علي بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة سبعمائة درهم فبع سيفي ودرعي فاقضها عني، واذا قتلت فاستوهب جثتي من ابن زياد فوارها ، وابعث الى الحسين من يرده فاني قد كتبت اليه اعلمه ان الناس معه ، ولا اراه الا مقبلا

فقال عمر لابن زياد :« انه قال كذا و كذا »

فاجاز ابن زياد ذلك كله وقال :

— ان الامين لا يخونك ولكن قد يؤتمن الخائن ، اما مالك فهو لك ولسنا نمنعك ان تصنع به ما احببت ، واما جثتك فلانبالي

اذا قتلناك ما يصنع بها ، واما حسين فان هو لم يردنا لم نرده

ثم قال ابن زياد : يا ابن عقيل اتيت الناس وامرهم مجتمع فشتت بينهم وفرقت كلمتهم وحملت بعضهم على بعض

قال : كلا لست لذلك اتيت ، ولكن اهل هذا العصر زعموا ان اباك قتل خيارهم وسفك دماءهم ، وعمل فيهم اعمال كسرى وقيصر فاتيناهم لنأمر بالعدل وندعو الى حكم الكتاب والسنة .

فقال له ابن زياد : وما انت وذاك يا فاسق ، قتلني الله ان لم اقتلك قتلة لم يقتلها احد في الاسلام

فقال مسلم : اما انك احق من احدث في الاسلام ما ليس فيه ، وانك لا تدع خبث السيرة ولؤم القيلة وقبح المثلة .

فاقبل ابن زياد يشتمه ويشتم الحسين وعليا وعقيلا عليهم السلام ، واخذ مسلم لا يكلمه ، ثم قال ابن زياد :

— اصعدوا به فوق القصر واضربوا عنقه

فقال مسلم لابن الاشعث : لولا امانك ما سلمت ، قم بسيفك دوني قد اخفرت ذمتك

ودعا ابن زياد بكير بن حمران الاحمري الذي ضرب ابن عقيل رأسه بالسيف وقال له :

— اصعد فلتكن انت الذي تضرب عنقه

فصعد به وهو يكبر ويستغفر الله ويصلي على رسوله ويقول :

« اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا و كذبونا وخدعونا » واشرف به على الناس وهم على باب القصر مما يلي الرحبة فضرب عنقه امامهم فسقط رأسه على الرحبة، ثم القيت جثته الى الناس ، وقام محمد بن الاشعث الى عبيد الله بن زياد فكلمه في هانيء بن عروة فقال :

— انك عرفت منزلة هانيء في المصر وبيته في العشيرة ؛ وقد علم قومه اني انا وصاحبي سقناه اليك فانشدك الى لما وهبته لي؟

فوعده ان يفعل ثم بدا له رأي آخر فامر بهانيء حين قتل مسلم ،فقال: «اخرجوه الى السوق واضربوا عنقه» فاخرج هانيء حتى انتهى الى مكان من السوق كان يباع فيه الغنم وهو مكتوف فجعل يقول :

— وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم.

فلما رأى ان احداً لا ينصره جذب يده فنزعها من الكتاف، ثم قال :

— اما من عصا او سكين او حجر او عظم يدافع به رجل عن نفسه ؟

فوثبوا اليه وشدوه وثاقاً ، وقيل له ان امدد عنقك، فقال:

— ما انا بسخي وما انا بمعينكم على نفسي

فضربه مولى لعبيد الله تركي يقال له رشيد بالسيف فلم يصنع شيئاً، فقال هانيء :

— الى الله المعاد اللهم الى رحمتك ورضوانك

ثم ضربه اخرى فقتله

وفي رواية احمد بن داود الدينوري كان قتل هانيء بن عروة عقب انصراف عمرو بن الحجاج ومن معه من مذحج ،قال :

« فلما علم ابن زياد انهم قد انصرفوا امر بهانيء بن عروة فاتى به السوق فضربت عنقه هناك

وكان قتل مسلم بن عقيل يوم الاربعاء لتسع مضين من ذي الحجة وذلك يوم عرفة سنة ستين

قال البياسي : ثم امر ابن زياد بجثة مسلم فصلبت ولما قتل مسلم وهانيء بعث عبيد الله بن زياد برأسيهما مع هانيء بن ابي حية الوادعي والزبير بن الاروح التميمي الى يزيد بن معاوية ، وامر كاتبه ان يكتب بما كان من امر مسلم وهانيء ، فكتب الكاتب وهو عمر بن نافع فاطال وكان اول من اطال في الكتب فلما نظر فيه عبيد الله كرهه وقال :

ـ ما هذا التطويل وما هذا الفضول ؟ اكتب :

« اما بعد فالحمد لله الذي اخذ لامير المؤمنين حقه وكفاه مؤنة عدوه ، اخبر امير المؤمنين ان مسلم بن عقيل لجأ الى دار هانيء بن عروة المرادي واني جعلت عليهما العيون ودسست اليهما الرجال وكدتهما حتى استخرجتهما وامكن الله منهما فضربت

اعناقهما وقد بعثت اليك برأسيهما مع هانيء بن ابى حيـة الوادعي والزبير بن الاروح التميمى وهما من اهل السمع والطاعة والنصيحة فليسألهما امير المؤمنين عما احب من امر، فان عندهما علماً وصدقـا وورعاً والسلام»

فكتب اليه يزيد: اما بعد فانك لم تعد ان كنت كما احب، عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، وقـد اغنيت و كفيت وصدقت ظني بك ورأيي فيك وقد دعيت رسوليك وسألتهما وناجيتهما فرأيتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت فاستوص بهما خيراً، وانه قد بلغني ان حسيناً قد فصل من مكة متوجهـا الى العراق فازك العيون عليـه، وضع الارصاد على الطرق، واحترس واحبس على الظنة واقتل على التهمة واكتب الي فيما يحدث من خير ان شاء الله.

***

وبذلك انتهت حياة مسلم بن عقيل الشاب الباسل، الذي انكر عليه الاب لامنس ان يكون دافع عن نفسه وقاتل خصومه العديدين بسيفه ولوحده، ويأبي عليه الا ان يكون قد استسلم لما رأى القوة قد احاطت به، ولا ندري المصدر الذي استقى منه لامنس هذا الخبر، هذا اذا لم يكن من مخترعاتـه، وهي كثر ذلك ان امر دفاعه عن نفسه ومقاتلة خصومه الذين يزيـدون عن

السبعين ، من الامور التى اجمعت عليها كتب التاريخ ، واكدتها مختلف السير والاخبار .

ولعل اروع ما في هذا الفصل ما اظهره مسلم من جرأة وبسالة لما مثل بين يدي ابن زياد ، واهتمامه الاهتمام كله بانفاذ الخير الى الحسين وجماعته بان لا يردوا الكوفة ، بعد ان ثبت له تقاعس الناس عن نصرتهم ، ونقضهم لبيعتهم ، وقد ادرك رحمه الله انه مقتول ، وايقن ان القوم سيخذلون الحسين كما خذلوه ، ويخلون بينه وبين عدوه يصادمه وحده ويقاتله بشيعته القليلة واهله ، وما كان بطوق هؤلاء ان يقفوا في وجه القوة العظيمة التي كان باستطاعة ابن زياد ارسالها عليهم ، ودفعها لحربهم ، فكان مثلهم والحالة هذه مثل فرد يقاتل جيشاً ، وهو امر كان فوق الطاقة وفوق الامكان

— ٩ —

فى طريق الكوفة

ينتظم ملك يزيد بن معاوية — وهو ملك ابى الله الا ان يكون قصير الاجل ، مفجع الحوادث ، دامي الوقائع — في ثلاثة فصول ومقدمة ، فاما المقدمة فقد شهدنا احداثها بمصرع مسلم بن عقيل ، واما الفصول الثلاثة فاولها معركة كربلاء ، وثانيها اقتحام المدينة واستباحتها للناس ، وثالثها محاصرة الكعبة ، وفي اثناء حصارها يهلك يزيد ، ويذهب الملك من اسرة معاوية ، ويمحق الله نسله فلا تقوم لهم قائمة ، ولا يفشو لهم خبر ، ولا يظهر لهم بعد ذلك شأن .

***

ولقد غضب يزيد على عامله الوليد بن عتبة في المدينة ان سمح للحسين بالرحيل الى مكة ، ولم يأخذه بالقوة على البيعة ، فراح يولي مكانه عمرو بن سعيد الملقب بالاشدق ، وكان الحسين عليه السلام قد دخل مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان سنة ٦٠ ، فاقام فيها بقية شعبان وشهر رمضان وشوالاً وذا القعدة وخرج منها لثلاث مضين من ذى الحجة يوم الثلاثاء ، وهو اليوم الذى خرج فيه مسلم

ابن عقيل بالكوفة ، وكان قد اجتمع عليه مدة مقامه بمكة نفر من اهل الحجاز ، ونفر من اهل البصرة ، وانضافوا الى اهل بيته ومواليه ولما اراد الحسين عليه السلام التوجه الى العراق طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة واحل من احرامه وجعلها عمرة ، ولم يكن خبر مسلم بن عقيل قد بلغه لخروجه في يوم خروجه

ويقال [1] ان ابن الزبير اتى الحسين فقال له :

— ان شئت ان تقيم بالحجاز اقمت ، فوليت هذا الامر فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك

فابى الحسين فقال له ابن الزبير : فاقم ان شئت وتوليني انا الامر فتطاع ولا تعصى ، فقال : وما اريد هذا ايضاً

واتى عبد الله بن عباس [2] الحسين فقال « قد ارجف الناس انك سائر الى العراق فبين لي ما انت صانع ؟ »

قال : قد اجمعت السير في احد يومي هذين ان شاء الله تعالى

فقال ابن عباس : اني اعيذك بالله من ذلك واتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك ، ان من تقصدهم قوم غدر ، اقم في هذا البلد فانك سيد اهل الحجاز ، فان كان اهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فان ابيت الا ان تخرج فسر الى اليمن فان

---

(١) ابن الاثير والطبري

«٢» الطبري وابن الاثير

بها حصوناً وشعاباً ولابيك بها شيعة

فقال له الحسين : يا ابن العم اني اعلم أنك ناصح مشفق ولكني قد ازمعت واجمعت على المسير

ولم يكن عند ابن الزبير [1] شيء اثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ولا احب اليه من خروجه الى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز، وعلماً بان ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين فلقي الحسين عليه السلام وقال له :

— على اي شيء عزمت يا اباعبد الله

فاخبره برأيه في اتيان الكوفة ؛ واعلمه بما كتب به مسلم ابن عقيل ، فقال له ابن الزبير :

— فما يحبسك ، فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق لما تلومت في شيء ، وقوى عزمه ثم انصرف

وجاءه عبد الله بن عباس وقد اجمع رأيه على الخروج، فجعل يناشده في المقام ويعظم عليه القول في ذم اهل الكوفة وقال له :

— انك تأتي قوماً قتلوا اباك، وطعنوا اخاك ، وما اراهم الا خاذليك .

فقال له : هذه كتبهم معي؛ وهذا كتاب مسلم باجتماعهم .

فقال له ابن عباس : ان كنت لا بد فاعلاً فلا تخرج احداً

«١» مقاتل الطالبيين

من ولدك ولا حرمك، ولا نسائك فخليق ان تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان

فابى ذلك ولم يقبله، قال فذكر من حضره يوم قتل وهو يلتفت الى حرمه واخواته وهن يخرجن من اخبيتهن جزعاً لقتل من يقتل معه، ويقول: لله در ابن عباس فيما اشار علي به.

قال فلما ابى الحسين عليه السلام قبول رأي ابن عباس ودعه وانصرف ومضى الحسين لوجهه

ولقي عبد الله بن العباس ابن الزبير بعد خروج الحسين فقال له: قد خرج الحسين وخلت لك الحجاز

ولقي الفرزدق بن غالب الشاعر الحسين خارجاً من مكة مع اسيافه واتراسه فسلم عليه فسأله من انت؟

قال: امرؤ من العرب

فسأله نبأ الناس

فقال الفرزدق: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء

فقال له الحسين: صدقت، لله الامر والله يفعل ما يشاء

ولما خرج الحسين من مكة اعترضه يحيى بن سعيد بن العاص ومعه جماعة ارسلهم اخوه عمرو بن سعيد الاشدق، فقالوا له: انصرف والا منعناك، فابى عليهم ومضى وتدافع الفريقان واضطربوا بالسياط

وامتنع الحسين واصحابه منهم امتناعاً قوياً ، وسار حتى التنعيم فلقي عيراً اقبلت من اليمن فاستأجر من اهلها جمالاً لرحله واصحابه وقال لاصحابها :

« من اراد ان ينطلق معنا الى العراق وفيناه كراءه ، واحسنا صحبته ، ومن اراد ان يفارقنا في بعض الطريق اعطيناه كراءه ، على قدر ما قطع من الطريق »

فمضى معه قوم وامتنع آخرون والحقه عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بابنيه عون ومحمد ، وكتب اليه كتاباً على ايديهما يقول فيه :

« اما بعد فاني اسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فاني اشفق عليك من الوجه الذي توجهت له ان يكون فيه هلاكك واستئصال اهل بيتك ، وان هلكت اليوم طفيء نور الارض ، فانك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فاني في اثر كتابي والسلام »

ولحق به عبد الله يحاول رده ، فلم يوفق ، واعتذر الحسين اليه ولما آيس منه عبد الله بن جعفر امر ابنيه عوناً ومحمداً بلزومه والمسير معه ، والجهاد دونه ، ورجع الى مكة .

ولما بلغ ابن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحصين بن نمير التميمي صاحب شرطته فنزل القادسية ونظم الخيل مابين القادسية

الى خفان ، وما بين القادسية الى القطقطانه ؛ والى جبل لعلع ، واخذ ما بين واقصة الى طريق الشام ، الى طريق البصرة ، فلا يدعون احداً يلج ولا احداً يخرج .

وتوجه الحسين عليه السلام ، نحو العراق حتى نزل ذات عرق ، ولما بلغ الحاجز ، كتب الى اهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي يعرفهم قدومه ؛ ويأمرهم بالجد في امرهم [1]

ولما انتهى قيس الى القادسية اخذه الحصين فبعث به الى ابن زياد ، فقال له ابن زياد :

— اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب الحسين ابن علي

فصعد قيس وحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« ان هذا الحسين بن علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا رسوله اليكم وقد فارقته بالحاجز فاجيبوه » ثم لعن ابن زياد واباه واستغفر لعلي

فامر به ابن زياد فرمى من اعلى القصر ، فتقطع ومات

واقبل الحسين يسير نحو الكوفة وانتهى الى ماء من مياه العرب فاذا عليه عبد الله بن مطيع وهو منصرف من العراق فلما رأى الحسين قام اليه وسلم عليه ، وقال :

« ١ » احمد بن داود الدينوري

— بابي انت وامي يا ابن رسول الله ما اخرجك من حرم الله وحرم جدك.

فاخبره الحسين بما كتب به اليه اهل الكوفة ، فقال له عبد الله :

— انشدك الله في حرمة الاسلام وقريش ان تنتهك ولئن طالبت ما في ايدي بني امية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك احداً ، فابى الا ان يمضي

ثم سار الحسين حتى انتهى الى (زرود) فنظر الى فسطاط مضروب فسأل عنه ، فقيل له هو لزهير بن القين البجلي ؛ وكان عثمانياً قد حج واقبل من مكة ، فاستدعاه الحسين ، فشق عليه ذلك ، ثم اجابه فلما عاد من عنده كان مشرق الوجه ، ظاهر البشر ، فانتقل بفسطاطه الى مقربة من فسطاط الحسين ثم قال لاصحابه : « من احب منكم ان يتبعني والا فانه آخر العهد » ثم طلق زوجته ، وقال لها : الحقي باهلك ، فاني لا احب ان يصيبك بسببي شر ، ولزم الحسين حتى قتل معه .

واتى الحسين خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبية [1] ، لقيه اعرابيان من بني اسد فسألهما عن الخبر فقالا له :

« يا ابن رسول الله قلوب الناس معك وسيوفهم عليك فارجع »

«١» ابو الفرج الاصبهاني

واخبراه بقتل ابن عقيل

ويقول ابو مخنف عن الاعرابيين انهما قضيا حجهما ولحقا بالحسين فادركاه ، وقد مر برجل وهمّ ان يسأله ، ثم تركه ، قالا فجئنا ذلك الرجل وسألناه ، فقال :

— والله لم اخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل ؛ وهانيء بن عروة رأيتهما يجران بارجلهما بالسوق

قالا : فلحقنا الحسين واخبرناه فجعل يقول : انا لله وانا اليه راجعون ، مراراً

عندئذ قال للحسين بعض اصحابه : « ننشدك الله الا رجعت من مكانك فانه ليس لك بالكوفة ناصر بل نتخوف عليك ان يكونوا عليك »

فوثب بنو عقيل وقالوا : « والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا والا نذوق ما ذاق مسلم »

فقال الحسين : لا خير في العيش بعد هؤلاء

فقال له بعض اصحابه : انك والله ما انت مثل مسلم بن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك اسرع!!

ثم ارتحلوا وكان لا يمر بماء الا اتبعه من عليه حتى انتهى الى (زبالة) فاتاه خبر مقتل اخيه من الرضاعة عبد الله بن يقطر وكان مسرحه الى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله ، فاخذته

خيل الحصين فسيره من القادسية الى ابن زياد ، فقال له: اصعد فوق القصر والعن الكذاب ابن الكذاب ثم انزل حتى ارى فيك رأيي، فصعد واعلم الناس بقدوم الحسين ولعن ابن زياد واباه ، فالقاه من القصر فتكسرت عظامه

واتاه رجل يقال له عبد المؤمن بن عمير اللخمي فذبحه، فعيب ذلك عليه ، فقال انما اردت ان اريحه وقد رأيت به رمقاً

واستقبل الحسين بزبالة رسولا محمد بن الاشعث وعمر بن سعيد فاخبراه الخبر وبلغاه الرسالة، وما كان من امر مسلم بن عقيل وخذلان اهل الكوفة اياه بعد ان بايعوه ، فاستيقن الحسين صحة الخبر، وافظعه قتل مسلم وهاني، وقال كل ما حلم نازل ، وعند الله نحتسب انفسنا ؛ وفساد امتنا ، ثم التفت الى من معه وقال :

— قد خذلتنا شيعتنا فمن احب منكم ان ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام

فتفرقوا يميناً وشمالاً حتى بقي في اصحابه الذين جاءوا معه من المدينة، ونفر يسير ممن انضموا اليه ، وانما فعل ذلك لانه علم ان الذين اتبعوه انما اتبعوه وهم يظنون انه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة اهله ، فاراد ان يعلموا على ما يقدمون عليه ، حتى لا يصحبه الا من يريد مواساته والموت معه

ثم سار حتى نزل بطن العقبة فلقيه رجل من بني عكرمة فسلم عليه واخبره بتوطيد ابن زياد الخيل ما بين القادسية الى العذيب رصداً له، ولقي الاعراب فاخبروه انهم لا يستطيعون ان يلجوا ولا ان يخرجوا.

***

وكان غرض ابن زياد من ربط الطرق التي تؤدي الى الكوفة بخيله ورجاله ان لا يدع الحسين يصل اليها، دون ان تدهمه رجاله وتقف في وجهه خيله، ولعله كان يبغي بذلك ان يمنع عن اهل الكوفة اخبار الحسين وحركات جماعته مخافة اهتياجهم وثورتهم، مع علمه بخمولهم وانكسارهم وضعف انفسهم، ولكنها السياسة، والدهاء والحيلة لا تسمح بان تؤتى من خلفها وتطعن من ظهرها وقد اظهر ابن زياد في ما انصرف اليه من تنظيم اموره، وتثبيت شؤونه، وحشد مسالحه ورجاله، انه كان يريد القضاء على الحسين وشيعته قبل ان يعلم اهل الكوفة وغير اهل الكوفة بشيء من خبره، وامر من اموره، وفي ذلك برهان على رغبته في القتل وسفك الدماء دون ما سبب ظاهر، ومصلحة قاهرة، لان الحسين لم يكن لديه من القوة والرجال ما يخشى ابن زياد معهم ثورة او اضطراباً، وكان بطوقه لو اراد سلاماً، ولم يبغ خصومة وحرباً ان يأخذ الحسين رضي الله عنه الى الكوفة ويبعث الى يزيد بالخبر

يطلب منه الرأي والمشورة ، ولكنه ارادها مذبحة مفجعة ، لا مبرر لها ولا فائدة منها ، الا ما نعتقده من اتفاقه ويزيد على ذلك ليخلو الجو عندئذ ليزيد وامثال يزيد ، وينتهي بمقتل الحسين من يطالب بالخلافة ، ويدعو الى السلطان والملك

— ١٠ —

ولما ترآءى الجيشان

بث ابن زياد سراياه ، في طول العراق وعرضه ، وفي كل سبيل يضرب في الارض ؛ ويتصل بالكوفة ، او ينتهي اليها ، وقد القي في روعه ان الحسين ولا بد واقع على احد سراياه ، وانه لن يفلت منه هذه المرة كما افلت من عامل المدينة وامير مكة

وقد طوى الحسين رضي الله عنه واهله الاديم بين مكة والكوفة في شيء كثير من النصب والمشقة ، فقد كانت الارض مضطربة السبل ، متعوجة الطرق ، غير مستقيمة الخطط ، وكانت الى ذلك كله منحدرة منحرفة مليئة بالاغوار والانجاد والرمال ، وكان الحر مذيباً ، والهواء فاتراً لاذعاً قوياً ، فلما وصل الحسين وجماعته الى شراف بات ليلته فيها — وشراف هذه على حدود العراق — ثم سار منها فلما انتصف النهار واشتد الحر ، ترآءت له خيل ابن زياد ، فقال الحسين :

— اما هنا مكان يلجأ اليه ، او شرف نجعله خلف ظهورنا ، ونستقبل القوم من وجه واحد

فقال زهير بن القين : بلى هذا جبل (ذي حسم) الى جنبك تميل

اليه عن يسارك فان سبقت القوم اليه فهو كما تريد .

فمال اليه فما كان باسرع من ان طلعت الخيل ، وعدلوا اليهم فسبقهم الحسين الى الجبل ، ونزل وجعله وراء ظهره ، وامر بابنيته فضربت .

وجاء القوم وهم الف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي ، وهم مقدمة الجيش الذي بعثه ابن زياد فوقفوا قبالة الحسين واصحابه في بحر الظهيرة ، والحسين واصحابه معتمون متقلدو سيوفهم ؛ فقال الحسين لاصحابه وفتيانه « اسقوا القوم ورشفوا الخيل ترشيفاً » ففعلوا

وكان مجيء الحر من القادسية ارسله الحصين بن نمير التميمي ، فلما شرب الحر ومن معه وتغمرت خيلهم جلسوا جميعاً في ظل خيولهم واعنتها في ايديهم حتى حضرت صلاة الظهر ، فامر الحسين مؤذنه الحجاج بن مسروق الجعفي بالأذان فاذن ، وخرج الحسين اليهم في ازار ورداء ونعلين وخطب الناس من اصحابه واعدائه ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« ايها الناس لم آتكم حتى اتتني كتبكم ورسلكم ؛ ان اقدم علينا فليس لنا امام لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد جئتكم فان تعطوني ما اطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم اقدم مصركم ، وان لم تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين ، انصرفت عنكم

الى المكان الذي اقبلت منه »

فسكتوا ولم يتكلم احد منهم بكلمة

فقال للمؤذن : اقم ، فاقام الصلاة ، وقال الحسين للحر :

— أتريد ان تصلي انت باصحابك واصلي باصحابي

فقال الحر : بل نصلي جميعاً بصلاتك

فصلى بهم الحسين الظهر ثم دخل واجتمع اليه اصحابه وانصرف الحر الى مكانه

فلما جاء وقت العصر نادى مؤذن الحسين ، ثم تقدم الحسين وصلى بالفريقين ثم استقبلهم بوجهه فحمد الله واثنى عليه وقال :

— اما بعد ايها الناس فانكم ان تتقوا وتعرفوا الحق لاهله يكن ارضى لله ، ونحن اهل البيت اولى بولاية هذا الامر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان فان انتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما اتتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم

فقال الحر بن يزيد : انا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر

فاتى الحسين بخرجين مملوءين صحفاً فنثرها بين ايدي الحر واصحابه .

فقال الحر : اننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد

أمرنا انا اذا لقيناك ان لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد

فقال الحسين : الموت ادنى اليك من ذلك ، ثم امر اصحابه فركبوا لينصرفوا نحو الحجاز ، فمنعهم الحر من ذلك

فقال له الحسين : ما الذي تريد ؟

قال الحر : اريد ان انطلق بك الى الامير عبد الله بن زياد

قال الحسين اذن والله لا اتبعك

قال الحر : اذن والله لا ادعك

فترادا الكلام و كثر الجدال بينهما ، فقال له الحر « اني لم اؤمر بقتالك ، وانما امرت ان لا افارقك حتى اكتب الى الامير عبد الله فلعل الله ان يأتي بامر يرزقني فيه العافية ، ولا ابتلي بشيء من امرك »

فقام الحسين يخطبهم فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال

« ايها الناس ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من رأى سلطانا جائراً مستحلا لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله ، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء ، واحلوا حرام الله ،

وحرموا حلاله، وانا احق من غيري وقد اتتني كتبكم ورسلكم ببيتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وانا الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع انفسكم ، واهلي مع اهلكم ، فلكم فيَّ اسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكير، والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام »

فقال له الحر : اني اذكرك الله في نفسك فانني اشهد لئن قاتلت لتقتلن

فقال له الحسين : ابالموت تخوفني وهل يعدو بكم الخطب ان تقتلوني وما ادري ما اقول لك ولكنني اقول كما قال اخو الاوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخوفه ابن عمه ، وقال له : اين تذهب فانك مقتول ، فاجابه

سامضي وما بالموت عار على الفتى ... اذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وخالف مثبوراً وفارق مجرما [1]
فان عشت لم اندم وان مت لم الم ... كفى بك ذلاً ان تعيش وترغما

فلما سمع ذلك الحر تنحى عنه ، فكان يسير باصحابه ناحية حتى

«١» الشبر العلن

انتهوا الى عذيب الهجانات و كان به هجائن النعمان ترعى هناك فنسب اليها ، فاذا هم باربعة نفر اقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرساً لنافع بن هلال ، ومعهم دليلهم طرماح بن عدي ؛ فانتهوا الى الحسين فاقبل عليهم الحر وقال :

— ان هؤلاء النفر من اهل الكوفة وانا حابسهم او رادهم

فقال الحسين : لامنعنهم مما امنع منه نفسي انما هؤلاء انصاري وهم بمنزلة من جاء معي فان بقيت على ما كان بيني وبينك والا ناجزتك ؛

فكف الحر عنهم ، فقال لهم الحسين : اخبروني خبر الناس خلفكم .

فقال له مجمع بن عبيد الله العامري وهو احدهم : اما اشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، فهم جماعة واحدة عليك واما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك

وسألهم عن رسوله قيس بن مسهر فاخبروه بقتله وما كان منه ، فترقرقت عيناه بالدموع ، ثم قرأ :

« فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »

وقال : « اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك »

ثم حدثه الطرماح بن عدي بان ابن زياد قد ارسل له قوة كبيرة ، وسأله ان ينصرف من مكانه الى مكان آخر يمنعه عن خصمه .

فقال له الحسين : جزاك الله وقومك خيراً ، انه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندري علام تتصرف بنا وبهم الامور

ثم سار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل ، فنزل الفريقان جميعاً ، وكل فريق منهما على غلوة من الآخر فرأى الحسين فسطاطاً مضروباً ، فقال : لمن هذا ؟

فقيل : لعبد الله بن الحر الجعفي

فقال : ادعوه الي ، فلما اتاه الرسول قال :

— ما خرجت من الكوفة الا لكثرة من رأيته خرج لمحاربته ، وخذلان شيعته و كراهية ان يدخلها الحسين .

وجاءه فسلم عليه ، فدعاه الى نصره ، فقال عبيدالله :

— والله اني لاعلم ان من شايعك كان السعيد في الآخرة ، ولكن ما عسى ان اغني عنك

فقال الحسين فان لم تكن تنصرنا فاتق ان تكون ممن تقاتلنا .

فقال ابن الحر : اما هذا فلا يكون ابداً .

ولما كان في آخر الليل امر الحسين بالرحيل وسار من قصر بني مقاتل، ولما طلع الفجر نزل وصلى باصحابه ثم ركب واخذ يتياسر بهم وكلما اراد ان يميل نحو البادية منعه الحر بن يزيد ورده واصحابه نحو الكوفة حتى انتهى الحسين الى نينوى فنزل بها؛ واذا راكب على نجيب، عليه السلاح متنكب قوساً مقبل عليهم فوقفوا ينتظرونه، ولما انتهى اليهم سلم على الحر واصحابه، ولم يسلم على الحسين، ودفع الى الحر كتاباً من ابن زياد، واذا فيه:

« اما بعد فشدد على الحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله الا بالعراء، في غير حصن، وعلى غير ماء، وقد امرت رسولي ان يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك امري والسلام »

فلما قرأ الكتاب قال هذا كتاب الامير عبيدالله يأمرني ان اشدد بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وقد امر رسوله ان لا يفارقني حتى انفذ امره

وراح الحر يأخذهم بالنزول على غير ماء ولا في قرية، فقالوا دعنا في نينوى او ننزل في غيرها

فقال: لا استطيع، هذا الرجل قد بعث عيناً علي

فقال زهير بن القين للحسين: انه لا يكون والله بعد ماترون

الا ما هو اشد منه ، يا ابن رسول الله ان قتال هؤلاء اهون علينا من قتال ما يأتينا بعدهم ، فلعمري ليأتينا بعدهم ما لا قبل لنا به فهلم نناجز هؤلاء

فقال الحسين : اني اكره ان ابدأهم بالقتال

فقال له زهير : سر بنا الى هذه القرية حتى ننزلها فانها حصينة وهي على شاطيء الفرات فان منعونا قاتلناهم

فقال الحسين : ما هي ، قال العقر قال : اللهم اني اعوذ بك من العقر

ثم سار وسار الحر قليلاً حتى اتوا مكاناً قريباً من الفرات اسمه كربلاء ، فوقف الحر واصحابه امام الحسين ومن معه ومنعوهم عن المسير

فنزل الحسين بهذا المكان في يوم الخميس ثاني محرم سنة احدى وستين للهجرة .

***

ولما كان اليوم الثاني من نزول الحسين كربلاء ، قدم عمر بن سعد بن ابي وقاص من الكوفة في اربعة آلاف ارسله ابن زياد بهذا الجيش لمحاربة الحسين ومقاتلته ، وكان ابن زياد قد ولاه على الديلم ، فلما كان امر الحسين ندبه لقتاله فاستعفاه فابى ، فوافى الحسين برجاله وانضم اليه الحر بن يزيد فيمن معه ، وامر عمر بن سعد

عروة بن قيس الاحمسي ان يأتي الحسين ، فاستحي ان يأتيه ، فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلهم ابى ذلك وكرهه

فارسل عمر قرة بن سفيان الحنظلي يسأله ما الذي جاء به

فقال الحسين : كتب الي اهل مصركم هذا ان اقدم عليهم ، فاما اذا كرهوني فاني انصرف عنكم الى مكة

فكتب عمر الى ابن زياد يعرفه ذلك ، فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال :

الآن اذ علقت مخالبنا به ، يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب الى عمر يأمره ان يعرض على الحسين بيعة يزيد ؛ فاذا فعل ، رأينا رأينا ، وان يمنعه ومن معه من الماء ، كما فعل بامير المؤمنين عثمان بن عفان

فارسل عمر بن سعد عمرو بن الحجاج في خمسمائة فارس ، فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين واصحابه وبين الماء ان يستقوا منه قطرة وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة ايام ، ونادى عبد الله بن ابي الحصين الازدي :

— ياحسين ، اما تنظر الى الماء والله لا تذوقون منه قطرة واحدة حتى تموتوا عطشاً

ولما اشتد العطش على الحسين واصحابه امر اخاه العباس بن علي فسار في عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً ، فدنوا من

الماء فقاتلوا عليه، وملأوا القرب وعادوا

ثم بعث الحسين الى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الانصاري : ان القني الليلة بين عسكري وعسكرك.

فخرج اليه عمر واجتمعا ليلاً فتناجيا طويلاً ثم انصرف كل واحد منهما الى عسكره ، ولم يدر احد ما قالا .

وقال عقبة بن سمعان : صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ولم افارقه حتى قتل ، وسمعت جميع مخاطباته الى يوم قتله فوالله ما زاد على ان قال لهم

— دعوني ارجع الى المكان الذي اقبلت منه او دعوني اذهب في هذه الارض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه امر الناس ، فلم يفعلوا

ثم التقى الحسين وعمر بن سعد مراراً ثلاثاً او رابعاً ، فكتب عمر بن سعد الله الى عبيد الله بن زياد يقول :

« اما بعد فان الله اطفى الثائرة وجمع الكلمة وقد اعطاني الحسين ان يرجع الى المكان الذي اقبل منه او ان نسيره الى اي ثغر من الثغور شئنا ، او ان يأتي يزيد امير المؤمنين فيضع يده في يده ، وفي هذا لكم رضى ، ونلامة صلاح »

فلما قرأ ابن زياد الكتاب، قال هذا كتاب رجل ناصح لامير ، مشفق على قومه ، نعم قد قبلت

فقام اليه شمر بن ذي الجوشن، فقال : انقبل هذا منه وقد نزل بارضك والى جنبك؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن اولى بالقوة والعزة ، ولتكونن اولى بالضعف والعجز ؛ فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فان عاقبت كنت ولي العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك ، والله لقد بلغني ان الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين العسكرين

فقال ابن زياد : نعم ما رأيت ، اخرج بهذا الكتاب الى عمر فليعرض على الحسين واصحابه النزول على حكمي فان فعلوا، فليبعث بهم الي سلماً وان ابوا فليقاتلهم ، وان فعل فاسمع له واطع ، وان ابى فانت الامير عليه وعلى الناس، واضرب عنقه وابعث الي برأسه ، وكتب معه الى عمر بن سعد

« اما بعد فاني لم ابعثك الى الحسين لتكف عنه ، ولا لتقعد له عندي شافعاً ، انظر فان نزل الحسين واصحابه على الحكم، واستسلموا فابعث بهم الي سلماً ، وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون فان قتل الحسين فاوطيء الخيل صدره وظهره فانه عاق شاق قاطع ظلوم ، فان انت مضيت لامرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان انت ابيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر والسلام »

حمل شمر كتاب ابن زياد الى عمر فقرأه وقال له :

— مالك ويلك قبح الله ما جئت به ، والله اني لاظنك انت ثنيته ان يقبل ما كنت كتبت اليه له ؛ افسدت علينا امراً كنا رجونا ان يصلح ، لا يستسلم والله الحسين ابداً ، ان نفسا ابية لبين جنبيه .

فقال شمر : اخبرني ما انت صانع ، امضي لامر اميرك وتقاتل عدوه والا فحل بيني وبين الجند قال ؛ لا وانا اتولى ذلك وكن انت على الرجالة .

ونهض عمر بن سعد الى الحسين عشية الخميس وليلة الجمعة لتسع ليال مضين من المحرم ، وجاء شمر فوقف على اصحاب الحسين ودعا العباس بن علي واخوته جعفراً وعبد الله وعثمان فخرجوا اليه ، انتم يابني اختي آمنون

فقالوا له : لعنك ولعن امانك اتؤمننا وابن رسول الله لا امان له ، لا حاجة لنا في امانكم

ثم ركب عمر والناس معه والحسين جالس امام بيته محتبياً بسيفه اذ خفق برأسه على ركبته ، وسمعت اخته زينب الضجة فدنت منه وايقظته فرفع رأسه وقال له اخوه العباس ياأخي : اتاك القوم ، فقال : اركب بنفسي فقال : بل اروح انا فاتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر فسألهم

فقالوا : جاء امر الامير ان نعرض عليكم ان تنزلوا على حكمه او تناجزكم

قال : فلا تعجلوا حتى ارجع الى ابي عبد الله، فاعرض عليه ماذكرتم .

فوقفوا ورجع العباس اليه بالخبر ، ووقف اصحابه يخاطبون القوم ويذكرونهم الله ، فلما اخبره العباس بقولهم ، قال له الحسين: —ارجع اليهم، فان استطعت ان تؤخرهم الى غد لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره ، فهو يعلم اني احب الصلاة له ، وتلاوة كتابه و كثرة الدعاء والاستغفار ، واراد الحسين كذلك ان يوصي اهله . وقد ادرك انه مفارقهم عما قريب

فرجع اليهم العبّاس وقال لهم : انصرفوا عنا العشية حتى ننظر في هذا الامر، فاذا اصبحنا التقينا ان شاء الله ، فاما رضينا الامر واما رددناه .

فقال عمر بن سعد : ما ترى ياشمر ؟

قال : انت الامير

فاقبل على الناس فقال : ما ترون ؟

فقال له عمر بن الحجاج الزبيدي : سبحان الله ، والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي ان تجيبوه

وقال قيس بن الاشعث بن قيس : اجبه لعمري ليصبحنك بالقتال غدوة .

فقال : لو اعلم انه يفعل ما اخرته العشية

ثم رجع العباس ومعه رسول عمر بن سعد فقال انا اجلناكم الى غد وانصرف عنهم

فجمع الحسين اصحابه بعد رجوع عمر في اول الليل ، فقال :

«اثني على الله احسن الثناء واحمده على السراء والضراء ، اللهم اني احمدك على ان اكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وافئدة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين فاجعلنا لك من الشاكرين ، اما بعد فاني لا اعلم اصحاباً اوفى ولا خيراً من اصحابي ، ولا اهل بيت ابر ولا اوصل من اهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً ، فقد بررتم وعاونتم ؛ والقوم لا يريدون غيري احداً واني لاظن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً ، واني قد اذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام ؛ هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا في سواده وانجوا بانفسكم

فقال له اخوته وابناؤه وبنو اخيه وابنا عبد الله بن جعفر : لم نفعل هذا لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك ابداً ، بدأهم بذلك العباس

ابن علي واتبعه الجماعة فتكلموا بمثله ، وقالوا :

— معاذ الله ، وما نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ نقول تركنا سيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ، لا والله لا نفعل نفديك بانفسنا واموالنا واهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك

وقام اليه مسلم بن عوسجة الاسدي فقال : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في اداء حقك ، اما والله لا افارقك حتى اكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك ، حتى اموت معك

وتكلم اصحابه بنحو هذا

وكان علي بن الحسين تلك العشية مريضاً تمرضه عمته زينب فسمع اباه وهو في خباء له وعنده جوين مولى ابي ذر الغفاري ، يعالج سيفه ويصلحه والحسين يقول :

يادهر اف لك من خليل ... كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب او طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الامر الى الجليل ... وكل حي سالك سبيلي

فاعادها مرتين او ثلاثاً فادرك ما اعتزمه والده ولزم السكوت ؛

وسمعته زينب بنت علي اخته فلم تملك نفسها ان وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه ونادت :

— واثكلاه ليت الموت اعدمني الحياة اليوم ، ماتت امي فاطمة ، وعلي ابي ، وحسن اخي ، ياخليفة الماضي ، وثمال الباقي .

فنظر اليها الحسين وقال : « ياأخية لا يذهبن حلمك الشيطان ثم قال : لو ترك القطا لنام»

فقالت : واويلتاه افتغصبك نفسك اغتصابا فذلك اقرح لقلبي واشد على نفسي واطول لحزني ، وخرت مغشياً عليها .

فقام اليها الحسين فصب الماء على وجهها ، وقال :

— أتقي الله وتعزي بعزاء الله ؛ واعلمي ان اهل الارض يموتون واهل السماء لا يبقون ، وان كل شيء هالك الا وجه الله ، ابي خير مني ، وامي خير مني ، واخي خير مني ، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة ... فعزاها بهذا ونحوه ، وقال لها :

— يا اخية اني اقسم عليك لا تشقي علي جيباً ، ولا تخمشي وجهاً ، ولا تدعي علي بالويل والثبور ، ان انا هلكت

ثم خرج الى اصحابه فامرهم ان يقربوا بعض ليوتهم من بعض وان يدخلوا الاطناب بعضها في بعض ، ويكونوا بين يدي البيوت

فيستقبلون القوم من وجه واحد ، والبيوت عن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم ، ورجع الى مكانه فقام الليل كله يصلى ويستغفر ، وقام اصحابه كذلك يصلون ويستغفرون ويدعون ، وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم ، تحرسهم حتى لا يفر احد منهم ، و كأنما كان يريد القوم قتلهم كلهم ، والقضاء عليهم جميعهم

- ١١ -

كرب - وبلاء !

اصبحت شمس الجمعة لعشر خلون من محرم محمرة الاطراف ، دامية المعالم ، واصبح الحسين فعبي اصحابه بعد صلاة الصبح ، وكانوا يعدون اثنان وثلاثون فارساً واربعون راجلاً ، فجعل زهير بن القين في ميمنة اصحابه ؛ وحبيب بن مظاهر في ميسرتهم ، واعطى رايته العباس اخاه ، وجعل البيوت في ظهور اصحابه ، وامر بحطب وقصب فالقي في مكان منخفض من ورائهم بما يشبه الساقية ، واضرم فيها النار حتى لا يؤتي اصحابه من خلفهم

وعبى عمر بن سعد رجاله فكان على ميمنته عمر بن الحجاج الزبيدي ، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن ، وعلى الخيل عروة بن قيس الاحمسي ، وعلى الرجالة شبث بن ربعي ، واعطى الراية دريداً مولاه .

ووقف الحسين عليه السلام في جماعته وصفوته خطيباً فقال : بعد حمد الله والثناء عليه « ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى اعظكم بما يجب لكم علي وحتى اعذر اليكم ، فان اعطيتموني النصف كنتم بذلك اسعد ، ولم يكن لكم علي سبيل ، وان لم تقبلوا

مني العذر فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لايكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا ولا تنظرون ، ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين

فلما سمع اخواته وبناته كلامه ، بكين وصحن وارتفعت اصواتهن فارسل اليهن اخاه العباس وابنه علياً ليسكتاهن ، وقال وكأنه يحاور نفسه : لعمري ليكثرن بكاؤهن ، ولعله كان ينظر الى ماخلف ستر الغيب فيرى انه صريح وانه مقتول .

فلما سكتن قال : اما بعد فانسبوني وانظروا من انا ثم راجعوا انفسكم فعاتبوها ، وانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ، ألست ابن بنت نبيكم وابن ابن عمه ، واول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله ، أوليس حمزة سيد الشهداء عم ابي ، اوليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي ، اولم يبلغكم قول مستفيض ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ولاخي هذان سيدا شباب اهل الجنة فان صدقتموني فيما اقول وهو الحق ، والله ماتعمدت كذباً منذ علمت ان الله يمقت عليه اهله ، وان كذبتموني فان فيكم من اذا سألتموه عن ذلك اخبركم ، اما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟؟

وتكلم بعض رجال الحسين رضي الله عنه بمثل ذلك ، ولكن شمر بن ذي الجوشن وغيره من رجال ابن زياد كانوا قد اجمعوا امرهم على محاربة الحسين او ينزل على حكم ابن زياد ، وابوا على

الحسين ماطلبه منهم من تسييره الى يزيد في دمشق ، ذلك ان ابن زياد كان يعلم ان يزيداً ليس يستطيع الى الحسين سبيلا في العاصمة ، وانه ولا بد مضطر الى حفظ حقه ، والعناية به واكرامه ، وكان الى ذلك يعلم ان هذه فرصة لن تسمح له الايام بمثلها ، من حمل حفيد رسول الله على النزول تحت حكمه ، وهو من يعلم الناس جميعاً اضطراب نسب ، وانقضاع رحم ، وسوء خلق ، وما كان لمثل الحسين ان ينزل على حكم هذا ، فثارت عند ذلك مروءة الحر ابن يزيد الذي راح يحبس الحسين وجماعته عن الرجوع الى مكة اول الامر ، فتقدم نحو عمر بن سعد وقال له :

— اصلحك الله ، امقاتلي انت هذا الرجل ؟

فقال له : اجل والله قتالاً ايسره ان تسقط الرؤوس وتطيح الايدي .

قال : افما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا

فقال عمر بن سعد : والله لو كان الامر الي لفعلت ؛ ولكن اميرك قد ابى ذلك

فاقبل يدنو نحو الحسين قليلاً قليلاً ، واخذته رعدة ، فقال له رجل من قومه :

— والله ان امرك لمريب ما رأيت منك قط مثل ما اراه الآن

ولو قيل من اشجع اهل الكوفة لما عدوتك .

فقال له : اني اخير نفسي بين الجنة والنار ولا اختار على الجنة شيئاً ولو قطعت واحرقت

ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين وقال له :

— جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، انا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان ، والله ما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة ابداً ، ولو علمت انهم ينتهون الى ما ارى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني قد جئتك تائباً مما كان مني الى ربي ، مواسياً لك بنفسي ، حتى اموت بين يديك ، افترى ذلك توبة ؟

قال : نعم يتوب الله عليك ويغفر لك .

وتقدم الحر امام اصحابه ثم قال :

— ايها القوم ألا تقبلون من الحسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ، يا اهل الكوفة اوعدتموه حتى اذا اتاكم اسلمتموه ، وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه امسكتم بنفسه واحطتم به ومنعتموه من التوجه الى بلاد الله العريضة ، فاصبح كالاسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً ، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات

الجاري يشربه اليهود والنصارى والمجوس ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هو واهله قد صرعهم العطش بئس ما خلفتم محمداً في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ؛ ان لم تتوبوا وتنزعوا عما انتم عليه

فرموه بالنبل حتى وقف امام الحسين

وتقدم عمر بن سعد برايته مع دريد ، واخذ سهما فرمى وقال :

— اشهدوا لي اني اول من رمى

ثم رمى الناس وبرز يسار مولى زياد بن سمية وطاب البراز فخرج اليه عبدالله بن عمير الكلبي وكان قد اتى الحسين من الكوفة وسارت معه امرأته

فقال له : من انت ؟ فانتسب له ، فقال :

— لست اعرفك ليخرج الي زهير بن القين ، او حبيب بن مظاهر او بربر بن خضير

فقال له الكلبي : يا ابن الفاعلة وبك رغبة عن مبارزة احد من الناس ، ولا يخرج اليك احد الا وهو خير منك

ثم حمل عليه وضربه بسيفه حتى صرعه فاشتغل به يضربه فحمل عليه سالم مولى بن زياد ، فلم يأبه له حتى غشيه ، وبدره بضربة فاتقاها ابن عمير بيده اليسرى ، فاطارت اصابع كفه ، ثم مال عليه الكلبي

فضربه حتى قتله ، واخذت امرأته عموداً واقبلت نحو زوجها وهي تقول :

— فداك ابي وامي قاتل دون الطيبين ذرية محمد ، فردها نحو النساء ، فامتنعت ، وقالت :

— لن ادعك دون ان اموت معك .

فناداها الحسين وقال : جزيتم من اهل بيتي خيراً ارجعي رحمك الله فانه ليس على النساء قتال ، فرجعت

وزحف عمرو بن الحجاج في ميمنة عمر على ميمنة اصحاب الحسين ، فلما دنا منهم جثوا على الركب واشرعوا الرماح نحوهم ، فلم تقدم خيلهم على الرماح ، فذهبت الخيل لترجع فرشقهم اصحاب الحسين بالنبل ، فصرعوا منهم رجالا وجرحوا آخرين ؛ وتقدم رجل منهم يقال له عبد الله بن حوزة فاقدم على عسكر الحسين فقال : افيكم الحسين ؟ فلم يجبه احد فقالها ثلاثا ، فقالوا نعم فما حاجتك ؟

قال : ياحسين ابشر بالنار

قال له : كذبت بل اقدم على رب رحيم ، وشفيع مطاع فمن انت ؟

قال : ابن حوزة

فرفع الحسين يديه وقال : اللهم حزه الى النار

فغضب ابن حوزة واقحم فرسه في جدول بينهما فتعلقت رجله

اليسرى في الركاب وارتفعت اليمنى.

قال ابن جرير وابن الاثير: وقع رأسه في الارض وجالت به الفرس فسقط عنها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جانبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات

وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معهم وقال: لعلي اصيب رأس الحسين، فاصيب به منزلة عند ابن زياد، فلما رأى ما صنع الله بابن حوزة، رجع وقال: لقد رأيت من اهل هذا البيت شيئاً لا اقاتلهم معه ابداً

***

ونشب القتال بالمبارزة، فبرز جماعة من جيش عمر بن سعد لاصحاب الحسين رضي الله عنه، فتغلبوا عليهم، وقتلوهم كل مقتلة، وابلى الحر بن يزيد وغيره من رجال الحسين بلاء حسناً، وانما كان النصر لهم لانهم كانوا يطلبون الموت فلا يلاقونه، ولانهم كانوا يستميتون في مبارزة عدوهم، وهم يعلمون ان الجنة تكون لهم، واما خصومهم فكانوا يحاربون طمعاً بالعطاء الوافر، والربح الآجل.

وعندئذ صاح عمرو بن الحجاج بالناس، ان يرموا جماعة الحسين بالحجارة وان لا يبارزوهم افراداً وحمل عمرو بن الحجاج على الحسين من نحو الفرات فاضطربوا ساعة، فصرع مسلم بن عوسجة

الاسدي وانصرف عمرو ، وارتفعت العبرة ومسلم ضريع ، فمشى اليه الحسين وبه رمق فقال :

— رحمك الله يامسلم بن عوسجة

ودنا منه حبيب بن مظاهر وقال : عز علي مصرعك ابشر بالجنة ، ولولا اني اعلم اني في اثرك لاحقك ، ولاحببت ان توصيني حتى احفظك بما انت له اهل

فقال : اوصيك بهذا رحمك الله — واوماً بيده نحو الحسين — ان تموت دونه ، فقال افعل ، ثم مات

وقاتل اصحاب الحسين رضي الله عنه قتالاً شديداً ، فكان واحدهم ما يبارز رجلاً الا قتله ، ولا يهاجم صفاً الا خرقه ، وجثا يزيد بن زياد الكندي على ركبتيه بين يدي الحسين وكان رامياً فرمى بمائة سهم ما سقط منها خمسة اسهم ؛ وكل ما رمى يقول له الحسين :

— اللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة

وكان يزيد هذا في من خرج مع عمر بن سعد ، فلما ردوا شروط الامام الحسين عدل اليه فقاتل بين يديه حتى قتل

وحمل عندئذ شمر بن ذي الجوشن بميسرة جيش عمر من كل جانب على اصحاب الحسين فثبتوا له وطاعنوه ودافع عن الحسين

الفرسان من اصحابه دفاعاً عظيماً ؛ وقتل الكلبي وبعدان قتل رجلين بعد الرجلين الاولين ، وقاتل قتالا شديداً حتى قتل .

وراح اصحاب الحسين يقتحمون عدوهم ، واخذت خيلهم وعلى صهواتها اثنان وثلاثون فارسا ، فلم تحمل على جانب من خيل اهل الكوفة الا كشفته ، فلما رأى ذلك عروة بن قيس وهو على خيل اهل الكوفة بعث الى عمر بن سعد فقال :

— الا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ، ابعث اليهم الرجال والرماة .

فبعث اليهم عمر بن سعد الرماة عليهم الحصين بن نمير ، وكانوا خمسمائة فتقدم اليهم الحصين ان يرشقوا اصحاب الحسين بالنبل فرشقوهم ، فلم يلبثوا ان عقروا خيولهم ، وجرحوا الرجالة ، وعقر بالحر بن يزيد فرسه فنزل عنه وقاتلهم بسيفه ، فتكاثروا عليه حتى قتل .

وقاتل اصحاب الحسين القوم اشد قتال حتى انتصف النهار ورأى عمر بن سعد ان اصحابه لا يقدرون ان يأتوهم الا من وجه واحد لاجتماع مضاربهم ، فارسل رجالاً يقوضون البيوت عن يمينهم وشمالهم ليحيطوا بهم ، فكان الثلاثة والاربعة من اصحاب الحسين يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض ويهب

ويرمونه من قريب او يصرعونه ، فامر عمر بن سعد بالبيوت فاحرقت ، فقال لهم الحسين :

— دعوهم فليحرقوها فانهم اذا احرقوها لا يستطيعون ان يجوزوا اليكم منها ، فكان كذلك

وخرجت امرأة الكلبي فجلست عند رأسه تمسح التراب عن وجهه ، وتقول هنيئاً لك الجنة ، فامر شمر غلاماً اسمه رستم فضرب رأسها بالعمود فماتت مكانها

وحمل شمر بن ذي الجوشن حتى بلغ فسطاط الحسين ونادى عليّ بالنار حتى احرق هذ البيت على اهله ، فخرج النساء منه ، فنهاه شبث بن ربعي فانتهى وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة من اصحاب الحسين ، فارتد شمر ، واصحابه عن البيوت وقتلوا ابا عزة من اصحاب شمر فعطف اصحاب شمر عليهم فكثروهم ، وكانوا اذا قتل منهم الرجل او الرجلان تبين فيهم قلتهم واذا قتل في اولئك لا يتبين فيهم لكثرتهم

وصلى الحسين بأصحابه الظهر صلاة الخوف ، وقاتل زهير بن القين قتالا شديداً فحمل عليه كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن اوس فقتلاه

وكان نافع بن هلال البجلي قد كتب اسمه على افواق نبله وكانت مسمومة ، فقتل بها اثني عشر رجلا سوى من جرح فاخذ

اسيراً، فاخذه شمر بن ذي الجوشن فاتى به عمر بن سعد والدم يسيل على وجهه وهو يقول :

« لقد قتلت منكم اثني عشر رجلاً سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد ما اسرتموني »

فانتضى شمر سيفه ليقتله ، فقال له نافع :

— والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك ان تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه

فغضب شمر وقتله، ثم حمل على اصحاب الحسين فلما رأوا انهم قد كثروا وانهم لا يقدرون ان يمنعوا الحسين ولا انفسهم تنافسوا ان يقتلوا بين يديه ، فجاء عبد الله وعبد الرحمن ابناعروة الغفاريان اليه، فجعلا يقاتلان بين يديه حتى قتلا

ثم قام حنظلة بن سعد الشبامي بين يدي الحسين فنادى : ياأهل الكوفة، اني اخاف عليكم يوم التناد ، لا تقتلوا حسيناً، فيستحكم الله بعذاب ، وقد خاب من افترى ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل

وتقدم الفتيان الجابريان سيف بن الحارث بن سريع ، ومالك ابن عبد بن سريع، وهم ابنا عم واخوان لأم، فودعا الحسين وقاتلا حتى قتلا

واتى عابس بن ابي شبيب الشاكري وشوذب مولى شاكر الى الحسين فسلما عليه وتقدما فقاتلا ، فقتل شوذب ، واما عابس

فطلب البراز فتحاماه الناس لشجاعته

فقال لهم عمر : ارموه بالحجارة

فرموه من كل جانب ، فلما رأى ذلك القى درعه ومغفره ، وحمل على الناس فهزمهم بين يديه ثم رجعوا عليه وقتلوه

ولما رأى الضحاك بن عبد الله المشرقي ان اصحاب الحسين قد اصيبوا ولم يبق معه غير اثنين منهم ، جاء الى الحسين وقال :

— يا ابن رسول الله قد علمت اني قلت لك اني مقاتل عنك ما رأيت مقاتلا فاذا لم ار مقاتلا ، فانا في حل من الانصراف

فقال له الحسين : صدقت ، وكيف لك بالنجاء؟ ان قدرت عليه ؛ فانت في حل .

وكان ادخل فرسه فسطاطاً بين البيوت ، اذ كانت خيل اصحاب الحسين تعقر ؛ فقاتل راجلاً وقتل رجلين ، وقطع يد آخر .

فلما اذن له الحسين ، استخرج الفرس من الفسطاط واستوى على متنها وحمل على عرض القوم فافرجوا له وتبعه منهم خمسة عشر رجلاً ففاتهم

وبقي من اصحاب الحسين سويد بن عمر بن ابي المطاع وبشير بن عمرو الحضرمي فقاتلا حتى قتلا

وكان سويد بن عمرو آخر من قتل مع الحسين من اصحابه فلم يبق معه الا اهل بيته خاصة وهم عدد قليل.

-١٢-

شهيد في العراء

وكان النهار قد انتصف او كاد ، وقد تفانى انصار الحسين في القتال دونه ، والدفاع عنه ، فصرعوا واحداً بعد واحد ، واستشهدوا شهيداً بعد شهيد ، وقد تخيروا منيتهم وتسابقوا اليها ، وكلهم مدرك ان الحسين شهيد ، وانه مقتول ، فكان واحدهم يخشى ان يقع القضاء وهو حي ، فيقتحم صفوف الخصوم ، يتخطفهم بسيفه ويتخطفونه بسيوفهم فيسجى في ساحة القتال شهيداً ، باسم الثغر ، مطمئن القلب ، ضاحك الوجه ، ان فدى الحسين بنفسه ، ووقاه بروحه ، وردّ عنه كيد خصومه ، ولو الى حين .

فلما استشهد اصحاب الحسين الا اقلهم ، برز شباب بني هاشم بدورهم ، يدافعون عن والدهم وعمهم وابن عمهم ونسيبهم ، بقلوبهم وصدورهم ، وكان علي الاصغر بن الحسين رضي الله عنهما ، من اصبح الناس وجهاً ، واكملهم ادباً ، فتقدم للقتال قبل غيره ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة من عمره ، فشد على الجيش وهو يقول :

انا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت اولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فعل ذلك مراراً، يحمل فيرتد من امامه من شدة حملته، حتى صدمه مرة بن منقذ العبدي فطعنه فصرعه، وقطعه القوم بسيوفهم، فلما رآه الحسين قال :

— قتل الله قوماً قتلوك يابني، ما اجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء.

واقبل الحسين الى ابنه، واقبل فتيانه اليه، فقال احملوا اخاكم فحملوه من مكانه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط، الذي كانوا يقاتلون امامه، وخرجت زينب اخت الحسين، وهي كأنها الشمس فقالت : يااخياه وابن اخياه، واكبت عليه فجاءها الحسين وردها الى الفسطاط

فكان علي اول قتيل من بني ابي طالب يومئذ.

ثم تتابعت قتلى بني هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل؛ وعون بن عبد الله بن جعفر، ومحمد بن عبد الله بن جعفر، وعبد الرحمن بن عقيل بن ابي طالب، وجعفر بن عقيل

ثم خرج القاسم بن الحسن بن علي وبيده السيف، وهو غلام كان وجهه شقة قمر، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الازدي فضرب رأسه بالسيف، فسقط القاسم الى الارض لوجهه وهو

يقول : ياعماه

فانقض الحسين عليه كالصقر ثم شدّ شدة ليث أغضب، وضرب عمراً بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق .

وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمراً فاستقبلته بصدورها، وجالت عليه بفرسانها فوطئته حتى مات .

وانجلت الغبرة والحسين واقف على رأس القاسم، وهو يفحص برجليه ، والحسين يقول :

— بعداً لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك .

ثم قال : عز والله على عمك ان تدعوه فلا يجيبك ، او يجيبك فلا ينفعك ، هذا يوم كثر واتره وقلّ ناصره ، ثم احتمله على صدره حتى القاه مع ابنه علي ومن قتل معه من اهل بيته .

ثم جلس الحسين امام الفسطاط ، فاتى بابنه عبد الله وهو طفل فاجلسه في حجره ، فرماه رجل من بني اسد بسهم فذبحه ؛ فتلقى الحسين دمه في كفه ، ولما امتلأ كفه صبه في الارض ، ثم حمله حتى وضعه مع قتلى اهل بيته

ورمى عبد الله بن عقبة ، ابا بكر بن حسن بن علي بسهم فقتله

ولما رأى العباس بن علي كثرة القتلى في اهله ، قال لاخوته من امه وهم عبد الله وجعفر وعثمان : تقدموا حتى اراكم قد نصحتم لله

ولرسوله

وتقدم عبدالله فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ، وتقدم بعده جعفر بن علي فقتل ، ثم قتل عثمان بن علي ، وحمل عليه رجل من بني ابان بن دارم فاحتز رأسه ، ورمى رجل من بني ابان ايضاً ، محمد بن علي بن ابي طالب فقتله

وخرج غلام من آل الحسين من خباء من تلك الاخبية وهو ممسك بعود من عيدانه وهو ينظر كأنه مذعور ، فحمل عليه رجل قيل انه هاني بن ثبيت الحضرمي فقتله

واشتد عطش الحسين ، فدنا من الفرات ليشرب وبين يديه اخوه العباس ، فاعترضته خيل ابن سعد ، وفيهم حصين بن نمير فرمى الحسين بسهم فوقع في فمه فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه من الدم ، فرمى به الى السماء

ثم رجع الحسين الى مكانه واشتد به العطش ، واحاط القوم بالعباس فاقتطعوه عنه فجعل يقاتلهم وحده حتى قتل ، بعد ان اثخن بالجراح فلم يستطع حراكاً .

ولما رجع الحسين الى فسطاطه تقدم اليه شمر بن ذي الجوشن برجاله ، منهم ابو الجنوب واسمه عبد الرحمن الجعفي ، والقشعم بن عمرو ابن يزيد الجعفي وصالح بن وهب اليزني وسنان بن انس النخعي وخولي بن يزيد الاصبحي ، وجعل شمر يحرضهم على الحسين وهو

يحمل عليهم فينكشفون عنه ، ثم انهم احاطوا به فاسرع اليه رجل من كندة يقال له مالك فضربه على رأسه بالسيف ، وكان عليه قلنسوة فقطعها وادمى رأسه ، وامتلأت القلنسوة دماً ، فالقى القلنسوة وشد رأسه بخرقة ولبس قلنسوة اخرى واعتم عليها

واقبل الى الحسين عبدالله بن الحسن بن علي وهو غلام لم يراهق فقام الى جنبه وقد اهوى بحر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام :

— يا ابن الخبيثة اتقتل عمي ؟

فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده ، فقطعها الى الجلد ، فصرخ الغلام فاعتنقه الحسين وقال له :

— يا ابن اخي اصبر على ما نزل بك فان الله يلحقك بآبائك الطاهرين

واطلق الحسين بصره الى السماء يناجي الله قائلاً :

« اللهم امسك عنهم قطر السماء وامنعهم بركات الارض ، اللهم فان متعتهم الى حين ، ففرقهم فرقاً واجعلهم طرائق قددا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا وقتلونا »

ثم قاتل من امامه فانكشفوا عنه وبقي الحسين في ثلاثة رهط او اربعة

ولما قتلوا وبقي الحسين وحده وقد اثخن بالجراح في رأسه وبدنه

حمل الناس عليه عن يمينه وشماله ، فحمل على الذين عن يمينه ، فتفرقوا ، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا فما رؤي رجل قط ، قتل ولده واهل بيته واصحابه ، اربط جأشاً ، ولا امضى جناناً ولا اجرأ مقدماً منه ، اذ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله ؛ كلما شد عليها

وبينما هو كذلك اذ خرجت زينب وهي تقول : ليت السماء انطبقت على الارض ونظرت الى عمر بن سعد فقالت : ياعمر ، ايقتل ابو عبد الله وانت تنظر ؟

فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ؛ وصرف وجهه عنها .

والحسين يقاتل قتال الفارس الشجاع ، يتقي الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

— اعلى قتلي تجتمعون ، اما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله اسخط عليكم لقتله مني ، وايم الله اني لارجو ان يكرمني الله بهوانكم ؛ ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون

ومكث طويلاً ولو شاء الناس ان يقتلوه لقتلوه ؛ ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء ان يكفيهم هؤلاء ، فلما رأى ذلك شمر بن ذي الجوشن استدعى الفرسان فصاروا في ظهور الرجالة وامر الرماة ان يرموه ، فرشقوه بالسهام فاحجم عنهم

فوقفوا بازائه ، فنادى شمر في الناس :

— ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم امهاتكم

فحملوا عليه من كل جانب ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى فقطعها ، وضربه آخر على عاتقه فكبا منها لوجهه ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو ؛ وحمل عليه في تلك الحال سنان ابن انس النخعي ، فطعنه بالرمح فصرعه ، وبدر اليه خولي بن يزيد الاصبحي فنزل ليحتز رأسه ، فارعد

فقال له سنان : فتّ الله في عضدك ، ونزل اليه وذبحه ، واحتز رأسه ثم دفعه الى خولي

وفي «المفيد» انما قال ذلك شمر وهو الذي نزل فذبحه ، ثم دفع رأسه الى خولي بن يزيد

وسلب القوم الحسين ما كان عليه وتركوه مسجى في العراء وانتهب الناس حلله وابله واثقاله ومتاعه ، وسلبوا نساءه ، حتى ان كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها ؛ حتى تغلب عليه فيؤخذ منها ، ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة غير الرمية .

وكان سويد بن ابي المطاع قد صرع فوقع بين القتلى مثخناً فسمعهم يقولون قتل الحسين ، فوجد خفة فوثب ومعه سكين وكان

سيفه قد اخذ، فقاتلهم بسكينه ساعة ثم قتل، وكان آخر قتيل.

ثم انتهوا الى علي بن الحسين زين العابدين وهو مريض شديد المرض منبسط على فراش، فاراد شمر قتله، فقال له حميد بن مسلم

— سبحان الله ايقتل الصبيان ؟

وكان مع شمر جماعة من الرجالة فقالوا له : لا نقتل هذا العليل، ثم جاء عمر بن سعد فحمى النساء وحفظهن من الاعتداء [1]

كان عدد من قتل من اصحاب الحسين رضي الله عنه اثنين وسبعين رجلا، منهم من اهل بيته اخوته العباس وعبد الله وجعفر وعثمان امهم ام البنين، وعبد الله وابو بكر امهما ليلى بنت مسعود الثقفية، ومحمد امه ام ولد، وابناه علي وعبدالله، وبنو اخيه الحسن وهم القاسم وابو بكر وعبد الله، وابنا عبد الله بن جعفر وهما محمد وعون وبنو عقيل بن ابي طالب وعبد الله بن مسلم بن عقيل.

وقتل من اصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلا سوى الجرحى

وكان عمر الحسين يوم قتل خمساً وخمسين سنة وقيل احدى وستين وقيل غير ذلك والاول الاصح والارجح.

وكان قتله يوم عاشوراء اي العاشر من محرم سنة احدى وستين للهجرة بعد صلاة الظهر.

ولما قتل الحسين ارسل عمر بن سعد رأسه من يومه الى ابن زياد وامر برؤوس اصحابه واهل بيته فقطعت وكانوا اثنين وسبعين كما قدمنا فسرحها مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الاشعث وعمرو بن الحجاج وعروة بن قيس وقد سار هؤلاء برؤوس الشهداء محمولة على الرماح

ووكل عمر بن سعد بالفسطاط وبيوت النساء وبعلي بن الحسين، جماعة ممن كانوا معه، لئلا يتقدم احد اليهم بالاساءة، ثم عاد الى مضربه فنادى من ينتدب الى الحسين فيوطئه فرسه، فانتدب عشرة انفسهم، فداسوا جسد الحسين رضي الله عنه، بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره

وكان النهار قد انتهى او كاد، والشمس قد اختفت خلف غمامة، وهي تأبى ان ترى وجه الارض ما بقي من ذلك اليوم بقية [1]

(١) لما رحل عمر بن سعد خرج قوم من بني اسد كانوا نزولا بالقرب من مكان الواقعة، الى الحسين واصحابه فصلوا عليهم، ودفنوا الحسين رضي الله عنه

قال المفيد: وقبره اليوم حيث دفنه هؤلاء ودفنوا ابنه علي بن الحسين عند قدميه، وحفروا للشهداء من اهل بيته واصحابه الذين صرعوا حوله مما يلي رجلي الحسين وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً، ودفنوا العباس بن علي في موضعه الذي قتل فيه على طريق الغاضرية.

اما رأسه فاختلف الرواة في مكان دفنه فبعضهم يقول في دمشق، وبعضهم يذهب الي انه ارسل الى المدينة وغيرهم يقول غير ذلك

- ١٣ -

كأنه علم في رأسه نار

جلس ابن زياد في قصر الامارة واذن للناس اذناً عاماً ، والرأس الشريف موضوع في طست بين يديه ، ينظر اليه كرة ، ويبتسم له اخرى ، وبيده قضيب ينكث به ثناياه فترة بعد فترة وقد القي في روعه انه ملك البلد ، ووطد الامر ، وقطع المعارضة .

وكان الى جانبه زيد بن ارقم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ كبير ، فلما رآه لا يرفع قضيبه قال :

— ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذي لا آله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما .

ثم بكى

فقال له ابن زياد : ابكى الله عينيك ، فوالله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك

فخرج الشيخ وهو يقول : انتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة ، وامرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم

ودخلت زينب اخت الحسين ومن معها على ابن زياد [1] متنكرة وعليها ارث ثيابها ، فجلست ناحية من القصر ، وحفت بها اماؤها

فقال عبيد الله : من هذه التي انحازت فجلست ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه ، فقال ذلك ثلاثاً ، وهي لا تكلمه ، حتى قالت احدى اماؤها :

— هذه زينب ابنة فاطمة ، بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

فقال ابن زياد : الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم واكذب احدوثتكم

فقالت زينب : الحمد لله الذي اكرمنا بنبيه ، وطهرنا من الرجس تطهيرا ، انما يفضح الفاسق ، ويكذب الفاجر ،

---

(١) اقام عمر بن سعد بعد قتل الحسين رضي الله عنه يومين في كربلاء ثم ارتحل الى الكوفة وحمل معه بنات الحسين واخواته ومن كان معه من الصبيان وعلي بن الحسين رضي الله عنهما مريض ، فلما اجتازوا بهم على مكان المعركة ، وجسد الحسين الشريف مسجى في العراء ، صاح النساء وصاحت زينب اخته : « يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين في العراء مرمل بالدماء ، مقطع الاعضاء وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة »

وبكت ، فبكي الناس لبكائها ، واهتاج الناس لاهتياجها ، واحس القوم جهول ما فعلوا وعظيم ما اكتسبوا من الاثم والعدوان

وهو غيرنا والحمد لله.

فقال : كيف رأيت صنع الله باهل بيتك ؟

قالت : كتب عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتختصمون عنده

فغضب ابن زياد و:قال قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من اهل بيتك .

فبكت زينب رضي الله عنها وقالت : لعمري لقد قتلت كهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت اصلي ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت

فقال : هذه سجّاعة ، لعمري لقد كان ابوها سجاعاً شاعراً

فقالت : ما للمرأة والسجاعة ، ان لي عن السجاعة لشغلاً .

***

واطلق ابن زياد نظره في هذه السبايا من حفدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابصر علياً بن الحسين فقال له : من انت ؟

فقال : علي بن الحسين

فقال ابن زياد : او لم يقتل الله علي بن الحسين ؟

فقال : كان لي اخ يسمى علياً قتله الناس .

فقال ابن زياد : ان الله قتله

فقال علي بن الحسين : ان الله يتوفى الانفس حين موتها ، وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله .

فغضب ابن زياد وقال : وبك جرأة لجوابي

ثم قال : اني لا اظنه قد ادرك فاذهبوا به واضربوا عنقه .

فتعلقت به زينب عمته وقالت :

— يابن زياد حسبك منا ، اما رويت من دمائنا

واعتنقته وقالت : والله لا افارقه ، فان قتلته فاقتلني معه

ولما رأى ابن زياد ذلك منها تركه ، وقال : دعوه لما به .

***

وقام ابن زياد من مجلسه فمشى الي المسجد ونادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فخطبهم ، وقال :

« الحمد لله الذي اظهر الحق واهله ، ونصر امير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته »

فوثب اليه عبد الله بن حنيف الازدي — وكان ضريراً قد ذهبت احدى عينيه يوم الجمل مع علي ؛ والثانية بصفين معه ايضاً ، وكان لا يكاد يفارق المسجد يصلي فيه الى الليل ثم ينصرف — فقال :

— يا ابن مرجانة ، أتقتل ابناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ، ان الكذاب انت وابوك والذي ولاّك وابوه .

فقال ابن زياد : علي به .

فاخذته الجلاوزة ، فنادى بشعار الازد : « يامبرور » فوثب اليه فتية من الازد ، فانتزعوه ، ولما كان الليل ، ارسل اليه من اتاه به من بيته ، فقتله وامر بصلبه ، فصلب

ولما اصبح ابن زياد امر برأس الحسين رضي الله عنه فطيف به على رمح في الكوفة ، ثم انفذوه مع رؤوس اصحابه الى يزيد ابن معاوية ، وامر بنسائه وصبيانه ؛ فجهزوا وحملوا على الاقتاب ، وسرح بهم الى دمشق ، وعلي بن الحسين مقيد مغلول اليدين .

فلما مثلوا بين يدي يزيد وامامه الرأس الشريف ، تطاولت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضي الله عنهم ينظران الى الرأس والدموع هاطلة ، والافئدة واجمة ، والقلوب مضطربة ، واحس يزيد بذلك ؛ فاضطرب وجعل يتطاول بدوره ليستر الرأس عنهما وراح يحاول تهدئة روعهما مبرراً نفسه قائلاً : ان ذلك كان بغير علمه ، ولو كان الامر معه لعفى وصفح ، وحلم وسجح [1] ولما دخل عليه علي بن الحسين مغلولاً امر بفك غله وقال له :

---

(١) امر يزيد عامله بقطع راس الحسين « اليعقوبي جلد (٢) صفحة ٢٨٨ »

— ايه يا ابن الحسين ابوك قطع رحمي ، وجهل حقي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت

فقال له علي رضي الله عنه : كل مصيبة مسطورة في كتاب الله وتلا الآية :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما اتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور »

ثم امر يزيد بانزاله وانزال النساء في دار على حدة تتصل بداره ولما لبث اياماً حتى اوفدهم الى المدينة ، بعد ان جهزهم بما يصلحهم ، وارسل في خدمتهم بعض رجاله ، وامرهم بالمحافظة عليهم والتلطف في خدمتهم ورعايتهم ، وعوض عليهم ما فقدوه في المعركة ، وما سلبه منهم جماعة ابن زياد ، ذلك الفاجر الذي مزق الوحدة الاسلامية وجعلها شيعاً ، مما لا نزال نرى آثاره ظاهرة حتى يومنا هذا .

ولقد استعظم نساء يزيد فعلته ، واستكبر هو نفسه الامر ، وكانت قد صفت حال ابن زياد عنده لما وصل رأس الحسين ، وظن انه قد حسنت له ملكه ، وذلل له الرقاب ، فلم يلبث الا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم اياه ، فندم على قتل الحسين وراح يقول : « ما علي لو احتملت الاذى ، وانزلت الحسين معي في داري ،

وحكمته فيما يريد ، وان كان علي في ذلك وهن في سلطاني ، حفظاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ورعاية لحقه وقرابته ، لعن الله ابن مرجانة ، فانه اضطره ، وقد سأله ان يخلي سبيله ويرجعه فلم يفعل ، او يضع يده في يدي ، او يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه الى ذلك وقتله ، فبغضني بقتله الى المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة والبغضاء »

***

ومما يجب ان يصار الى ذكره في هذا الباب ما ظهر من زينب بنت فاطمة واخت الحسين صلوات الله عليهم من جرأة وثبات جأش ، في مواقفها هذه يوم المعركة ، وعند ابن زياد ، وفي قصر يزيد ، فانها لما مثلت وعيال الحسين عليه السلام امام يزيد ، قام رجل من اهل الشام وطلب من يزيد ان يهب له فاطمة بنت علي رضي الله عنه — ويقول المفيد انه طلب فاطمة بنت الحسين — فاخذت هذه بثياب عمتها زينب ، فقالت زينب للشامي :

— كذبت ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له

فغضب يزيد وقال :

— كذبت ؟ ان ذلك لي ، ولو شئت لفعلت .

قالت : كلا والله ما جعل الله لك ذلك ، الا ان تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

فاستطار يزيد غضباً وقال :

— اياي تستقبلين بهذا ؛ انما خرج من الدين ابوك واخوك .

قالت زينب : بدين الله ودين اخي وجـدي اهتديت ، انت وابوك وجدك .

فقال يزيد : كذبت ياعدوة الله .

قالت : انت امير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك .

فاستحى يزيد وسكت عنها

***

تولى على المدينة ذهول عميق ، وروعة عظيمة ، لما استطار الخبر بين اهلها بمقتل الحسين وكثير من اهله ، فصاح نساء بني هاشم ، وخرجت ابنة عقيل بن ابي طالب ومعها نساؤهـا حاسرة تصيح وتبكي وتقول :

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ... مـاذا فعلتم وانتم آخر الامم

بعترتي وباهلي بعد مفتقدي ... منهم اسارى وقتلى ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ... ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

فلما سمع عامل يزيد على المدينة عمرو بن سعد اصواتهن ضحك وصعد المنبر فاعلم الناس بمقتل الحسين [1]

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل ابنيه ، استرجع ، فدخل عليه

«١» قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعد بعد ذلك قتلة فظيعة

بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

— هذا ما لقينا من الحسين

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال :

— يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لاحببت ان لا افارقه حتى اقتل معه ، والله انه لما يهون علي المصاب بهما انهما اصيبا مع اخي وابن عمي ، مواسيين له صابرين معه ، وان لم تكن آست الحسين بيدي ، فقد آساه ولداي

***

اما قتلة الحسين رضي الله عنه ، فقد تواترت الاخبار بانه لم ينج احد منهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من جن ، ومنهم من اصيب ببلاء افتضح به قبل موته .

وروى ابن الجوزي [1] عن الزهري فقال :

— ما بقي احد منهم الا وعوقب في الدنيا ، اما بالقتل او بالعمى او سواد الوجه ، او زوال الملك في مدة يسيرة

وقال ابن تيمية [2] : اما قول الزهري : « ما بقي احد من قتلة الحسين ؟ حتى عوقب في الدنيا فهذا ممكن ، واسرع الذنوب عقوبة البغي ، والبغي على الحسين من اعظم البغي

«١» تذكرة خواص الامة صفحة ١٥٨

«٢» منهاج السنة النبوية ج ٢ ص ٣٥٠

وقال ابن كثير [١] :

« واما ما روي من الامور والفتن ، التي اصابت من قتله فاكثرها صحيح ، فقلَّ من نجا منهم في الدنيا الا اصيب بمرض واكثرهم اصابه الجنون

***

ولما وثب المختار بن ابي عبيد الثقفي في الكوفة ، واستتب له الامر ، قتل من قتلة الحسين ، او ممن كان في الجيش الذي ذهب لمحاربته مائتان واربعون رجلاً في يوم واحد ، وكان عمرو بن الحجاج الزبيدي ممن شهد قتل الحسين فهرب ولا يعلم اين ذهب ، ويقال ادركه اصحاب المختار فذبحوه

وهرب شمر بن ذى الجوشن فلحقه جماعة المختار وقتلوه

وتتبع المختار قتلة الحسين ، فكانوا يؤتون حتى يوقفوا بين يديه ، فيأمر بقتلهم انواعاً من القتلات بما يناسب ما فعلوا ، منهم من احرقه بالنار ، ومنهم من قطع اطرافه وتركه حتى مات ، ومنهم من رمي بالنبال حتى مات .

وبعث المختار الى خولي بن يزيد الذي رام ان يحتز رأس الحسين في المعركة ثم حمله الى ابن زياد ، فحملوه اليه بعد ان انتزعوه من مخبأه ، فامر بقتله ثم احرقه ، حتى عاد

« ١ » البداية والنهاية

زماداً .

وفعل مثل ذلك بكثير بن ممن شهدوا مقتل الحسين ؛ وحملوا سيفاً ، وقاتلوا اصحابه ، فقتلهم جميعاً ، ثم قتل عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد واتبعه بابنه .

وكان المختار اذا طلب شخصاً من الذين شهدوا مقتل الحسين ولم يعثر عليه – لان بعضهم تمكن من الهرب الى البصرة – امر بهدم داره واحراقها .

***

ثم بعث المختار ابراهيم بن الاشتر لقتال عبد الله بن زياد ، واخرج معه فرسان اصحابه واهل البصائر والتجربة ، وكان ابن زياد قد سار في عسكر عظيم من اهل الشام ؛ فلما التحم الجيشان تمكن ابن الاشتر وجيشه من اصحاب ابن زياد فهزموهم وقتل ابن زياد في المعركة ، قتله ابن الاشتر بضربة سيف فقطعه نصفين ، فاحتزوا رأسه ورؤوس اصحابه امثال الحصين بن نمير ، وشرحبيل ابن ذي الكلاع وغيرهم وارسلوها مع بشائر النصر الى المختار في الكوفة .

فلما انتظمت الرؤوس بين يديه بعث برأس ابن زياد وعمر بن سعد الى علي بن الحسين رضي الله عنهما

فلما القيت الرؤوس بين يديه خر ساجداً ؛ وقال : « الحمد لله الذي ادرك لي ثأري من اعدائي »

***

وكذلك اهلك الله سبحانه وتعالى كل من شهد مقتل الامام الحسين رضي الله عنه ، او رفع رمحاً في حربه ، اوضرب بسيف في قتاله .

- ١٤ -

في سبيل الوحدة الاسلامية

لقد انتهيت من كتابي هذا ، وكل شيء حولي هادئ مطمئن ولولا رياح الجو التي تعصف حول غرفتي ، لغمرني موضوع كتابي هذا ، وانساني من حولي من الناس

ان في كل ما بسطته من سيرة الامام «الشهيد» مايدفع الى الثورة النفسية ، ويستثير عواطف الغضب والغيظ ، ويبعث المؤرخ على التساؤل ، فيما اذا لم يكن بين رجالات الاسلام ، في هذا العصر الذي توفرت على وصفه ، من يتفهم الموقف ويطفيء هذه النار التي استطارت في كربلاء فغمرت الاسلام من اقصاه الى اقصاه وراحت تمزق من وحدته ، وتمعن في التفرقة والخصومة بين ابنائه ، ورجاله ؟

الم يكن هناك من ينتصف للحق ، ويدافع عن المظلوم ؟

أتبدلت الارض غير الارض ؟ واصبح الناس وكأنهم ليسوا من اولئك الذين كانوا لا يناموون على ضيم ، ولا يسكتون على معصية ؟

ألم يكن في الاسلام عهد الامام الحسين الا هذه العصبة الصغيرة ، التي مشت تؤيده وتنصره وتدافع عنه ، منكرة ان يكون الحكم الا للمسلم الصالح ، والامام العادل ، والخليفة الطاهر ؟

ألم يكن هناك بين رجالات الاسلام من يعلم ان الحسين الذي كادا يكيدون له ، ويسعون به ، احرص من هؤلاء الذين دفعوهم لقتاله وحربه على سلامة الاسلام والتمكين له في الارض ، واقدر منهم على ذلك ، واحسن بلاء في حمايته والذود عنه ؟

ولكنها الاقدار أبت غير ما تبسطنا في وصفه ، فكان ما كان من تمزق الشمل ، وتشتت الاهل ، وانقطاع الاسباب ، ومن حق المسلمين بعد ذلك ان يتفهموا هذا ويتدبروه ، وان يعلموا ان الامام انما كان يجاهد في سبيل فكرة ويسعى لمبدأ ، وانه انما راح يطالب بالخلافة لعلمه بانه احق بها ، واقدر على الخدمة فيها ، من يزيد وغير يزيد ، وانه ابعد من ان يرضى بما وقع بعد ذلك من انقسام وتفرقة ، وان الواجب يقضي عليهم جميعهم بلم شعثهم ، وجمع كلمتهم ، والاتفاق يداً واحدة في سبيل الله ، وفي سبيل محمد .

***

ولقد تكلفت انشاء هذا الكتاب ، وتكلفت ادارة المكتبة

الاهلية طبعه ونشره ، وكل غايتنا ان نصور للملأ من المسلمين والقراء ، صورة صادقة عن الحسين (صلوات الله عليه) وعهده ، وان نقص عليهم في ما سلف في فصول ، ما كان يضطرب في هذه الحياة من جهود ورغبة في الخدمة العامة ، واعلاء شأن الدين ، ورفع رايات الاسلام في ما يلي امصار العربية من اقطار وامصار ، وان نتولى بعد ذلك بالبحث والتدقيق حديث الشهادة ، ووقائع المعركة بالاصدق من الاخبار ، والاصح من الاقوال ، ثم نعرض للاسباب التي دعت الامام الحسين الى المسيره نحو الكوفة والتشمير الى العراق واهله ؛ وان نسوق القول في غاياته ، وما كان يعتور في نفسه ويضطرب في فؤاده من رغبة صادقة في توحيد الكلمة ، ولم الشعث ، لان المسلمين عهد يزيد لم يكونوا صوتاً واحداً ، ولا كلمة واحدة في تأييد ملكه ، وتعضيد امارته ، ولو ولي الملك الحسين (رضي الله عنه) لكان موقفهم غير هذا ، ولايدوه وصدقوه وعاهدوه وبايعوه ؛ وهو ما حمل الامام الحسين على ترشيح نفسه ، ودفعه الى قبول مايعة الناس له واذا كان الامر كذلك فلا يصح والحالة هذه ان يضطرب المسلمون بعد الكارثة شيعاً ، وان يتقسموا سبلاً ، بل من الحق كل الحق ، ان يتوفروا على القيام بعهد الحسين الشهيد ، وان يعملوا لما كان يعمل ، من الوحدة والاخوة

وكل املنا ان يلاقي كتابنا هـذا ما يستحقه من تأييد ، وان يسير سبيله بين المسلمين موحداً صفوفهم ، موئيـداً رغبة الامام في الوحدة ، عاملاً على اقرار رغائبه ومبادئه وما كان يعمل له ويسعى اليه .

انتهى الكتاب

مساء الاربعاء في ٢١ شعبان ١٣٥٣

خطأ مطبعي

وقع في كتابنا هذا بعض اخطاء مطبعية لا قيمة لها وقدراً ينا ان نشير الى بعضها ليصير اصلاحها قبل قراءة الكتاب:

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١	٢٥	اذا	واذا
١١	٣٢	ولانه يوءيد ما كتبه	ولانه يؤيد ذلك وهذا ما كتبه
١٩	١٠٤	البثر العلن	البثر اللعن

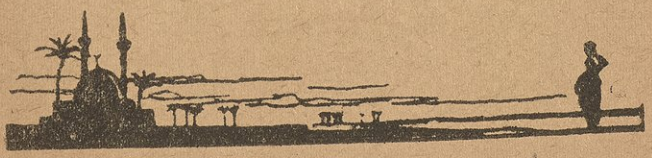

فهرس الكتاب

صفحة	فصل	
٥		مقدمة الكتاب
٩		مصادر الكتاب
١١	١	آل البيت والخلافة
١٦	٢	الامام علي بن ابي طالب
٢٤	٣	معاوية بن ابى سفيان
٣٥	٤	الحسين بن علي
٤٦	٥	يزيد بن معاوية
٥٣	٦	كتب ورسل من الكوفة
٦٣	٧	جاسوس بن زياد
٧٤	٨	مقتل رسول الحسين
٨٩	٩	في طريق الكوفة
١٠٠	١٠	ولما تراءى الجيشان
١١٨	١١	كرب — وبلاء
١٣١	١٢	شهيد في العراء
١٤٠	١٣	كأنه علم في رأسه نار
١٥٢	١٤	في سبيل الوحدة العربية

للمؤلف

الكتب المطبوعة

تاريخ سورية ولبنان حتى اوائل القرن التاسع عشر
〃 〃 〃 في القرن التاسع عشر
في دولة الادب والبيان — كتاب في النقد والادب والوصف
رجال الجمهورية — لبنان ١٩٢٦ — ١٩٣٣

***

هرون الرشيد
تيمور لنك — مترجم عن الانكليزية
فيصل ملك العراق — 〃 〃 〃
الامير عبد الكريم
ماذا يجب ان تعرف عن محمد والاسلام مترجم عن الافرنسية
محمد النبي العربي
خالد بن الوليد
ابو بكر الصديق
الحسين بن علي حفيد رسول الله

***

حسن — قصة عربية شرقية
الروايات البوليسية الوطنية
مجموعات البوليس في ثلاث مجلدات

اسماء مطبوعات — المكتبة الاهلية

في بيروت (مرتبة على حروف الهجاء)

١ ابن سعود
٢ ابو بكر الصديق
٣ الاسلام روح المدنية
٤ بلوغ الارب في احوال العرب
٥ تحت راية القرآن
٦ تيمورلنك
٧ الثريا المضية
٨ خالد بن الوليد
٩ دروس التاريخ الاسلامي اول
١٠ 〃 〃 〃 ثان
١١ 〃 〃 〃 ثالث
١٢ 〃 〃 〃 رابع
١٣ 〃 〃 〃 خامس
١٤ دروس الدين والاخلاق
١٥ دروس الصرف والنحو اول
١٦ 〃 〃 〃 ثان
١٧ الدروس العربية سلم
١٨ 〃 〃 اولى
١٩ الدروس العربية ثانية
٢٠ 〃 〃 ثالثة
٢١ 〃 〃 رابعة صرف
٢٢ 〃 〃 〃 نحو
٢٣ دروس الفقه
٢٤ ديوان عمر بن ابي ربيعة
٢٥ ديوان الرصافي
٢٦ ديوان الفرزدق
٢٧ 〃 جميل بثينة
٢٨ 〃 ذي الرمة
٢٩ 〃 امية بن ابي الصلت
٣٠ 〃 النابغة الذبياني
٣١ رجال المعلقات العشر
٣٢ سفينة نوح
٣٣ سيف الدولة (رواية)
٣٤ العروة الوثقى
٣٥ عظة الناشئين
٣٦ غابر الاندلس وحاضرها

٣٨ غرائب الغرب جزآن
٣٨ الفاروق عمر بن الخطاب
٣٩ فحول الشعراء
٤٠ فيصل ملك العراق
٤١ كشكول جمال اول
٤٢ 〃 〃 ثان
٤٣ 〃 〃 ثالث
٤٤ كليلة ودمنة (مصورة)
٤٥ لباب الخيار في سيرة المختار
٤٦ ماذا يجب ان نعرف عن محمد والاسلام
٤٧ محمد النبي العربي
٤٨ محمد رسول الهدى والرحمة
٤٩ محمد والمراة
٥٠ مصطفى كمال المثل الاعلى
٥١ النبوغ
٥٢ نخبة من الكلام النبوي
٥٣ نظرات في السفور والحجاب
٥٤ نظرات في اللغة والادب
٥٥ هرون الرشيد

للمكتبة (بيانا) — قائمة — تنشره في كل عام
لترسله — مجانا — الى من يطلبه

JUN 1 1953

893.7H955 DA

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58873759
893.7H955 DA
Husayn ibn Ali : haf